روايات مصرية للجيب

توركانا

سافاري

28

د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

1 ـ السحابة 9

إلى حد ما استقرت بى الحياة من جديد فى (سافارى) .. عادت قدماى المتعبتان إلى الحذاء القديم الأمين ، فشعرت براحة لا مثيل لها .. لا أنكر أن (كينيا) كانت حذاءً جديدًا ضيقًا جعل أصابعى تتورم .. أنتم تعرفون أنى سأجرب حظى فى (أوغندا) وجنوب إفريقيا وعدد من بلدان القارة السوداء .. لكنى فى كل مرة سأعود إلى (أنجولانديرى) التى أحببتها وأحبتنى ..

كانت حياتى الآن تتحرك على محورين جادين : المحور الأول هو انهماكى الشغوف فى الدراسة .. لا أعرف السبب لكنى رحت أنهل المعلومات نهلاً كأننى أرض عانت الجفاف كثيرًا .. ومن جديد ساورنى ذلك الشعور الخادع بأن الإجابة على كل شىء توجد فى الكتب ، وهو انطباع خاطئ طبعًا ، لكنى أعرفه جيدًا حينما أندمج فى وهج التعلم .. حين تزيح أعقد المعلومات الستار عن أسرارها فتبدو السطور سهلة كأنها كتاب القراءة الرشيدة .. حقًا لا أعرف سر هذه الظاهرة العجيبة ولا سر تلك الشعلة المقدسة التى اشتعلت فى عقلى ، لكنى سعيد بها وأدعو الله أن تطول فترة لا بأس بها ..

صرت أقضى الليل أو أكثره شاعرًا بأننى جالس بين أيدى السادة (لستر Lester) و(كوخ Koch) و(هالستد Halsted) وسواهم .. أصغى لهم فى نهم .. مفعمًا بالامتنان لأنهم يعطلون وقتهم من أجلى ..

المحور الثانى هو تقبلى النفسى لفكرة الأبوة .. كانت (برنادت) العزيزة تمارس عملها فى البيت والعمل ، فلم يتغير شىء .. لم يعلن الجنين عن وجوده بعد بانتفاخ فى بطنها ، وكف عن طريقته القديمة الكئيبة : القىء .. لقد تقبل جسدها فكرة ذلك الجسم الدخيل واستسلم له ..

على أن أهم عامل فى حياتى كان تلك الفترة من الهدوء النفسى والانتعاش الوقتى .. يطلق الأمريكان على هذه الفترات اسم (السحابة 9) .. ولا أعرف لماذا هى تاسعة ، لكنها على كل حال تلخص الموقف .. وكما يقول الشاعر العظيم (صلاح جاهين) فى رباعياته :

> يا ترى أنا مت .. والا وصلت للفلسفة ؟

لم يكلفنى (بارتلبيه) بمهمة غامضة من مهماته ، ولم يتفش وباء غامض فى الوحدة .. وبالتأكيد لم يغادر الموتى المشرحة ليشاهدوا التلفزيون .. لقد بدأت أفهم كيف يمارس الأشخاص

الطبيعيون حياتهم .. أنت تعرف بالضبط ما سيحدث غدًا وبعد شهر لو ظللت حيًا .. استيقاظ .. إفطار .. عمل .. غداء .. عمل .. استذكار .. نوم ..

وخطابات !

نعم .. هناك الكثير منها كالعادة .. بعضها من الوطن وبعضها من (كينيا) ، حيث الأصدقاء الذين اشتعلت صداقتى بهم كالبراكين ، وهى الآن توشك على أن تخمد كالجليد ....

كانت علاقتى منتظمة بـ (شارل سينوريه) - مدير الوحدة هناك الآن - عبر الخطابات ، وقد تجدد شعورى السابق بأنه من أقرب الناس إلى روحى فى وحدات (سافارى) ، كما أنه فيلسوف وفنان يمارس الطب .. حسن .. لا أعرف ما يقولون عنه فى وحدة (سافارى) فى (كينيا) لكنى أوشك أن أرى الإجابة : إنه مدير غير كفء .. لا يمكن أن يكون صاحب تلك الصفات متمتعًا بمواهب إدارية .. إن الإدارة تتطلب المزيد من الدنيوية وقدرًا أقل من التجرد .. الفلاسفة يجلسون فى الظل يتأملون ، بينما القادة يخرجون ليقودوا ..

كانت مراسلاتنا عن طريق البريد الإلكترونى ، تلك الطريقة التى قضت على الخطاب التقليدى ذى الطابع والمظروف .. هكذا لم يعد الرد على الخطاب طقسًا ، وإنما هو نشاط تمارسه فى أى وقت ..

تعالى يا (برنادت) وأصغِ ..

إن هذا هو خطاب (سينوريه) الأخير ، وفيه يحكى لى عن قصة عجيبة عاشها فى (كينيا) مع قبائل (توركانا Turkana) وهى ثانية أهم قبائل (كينيا) بعد (الماساى) ..

أنا لم أر هذه القبائل ولم أتمن أن أراها فكل ما أسمعه عنها كئيب ثقيل على النفس ..

لكن (سينوريه) خاض مغامرة لا بأس بها .. ربما هى المغامرة الجديرة بأن أكون طرفًا فيها ، لكنى لم أكن هناك .. هذا متوقع ، فمهما كان حبى للمتاعب لا بد أن تحدث قصة أو اثنتان فى القارة السوداء من دونى ..

إنه خطاب طويل جدًا .. لهذا أرسله لى على عدة أجزاء ..

أقترح أن تنتهى من عمل المنزل الروتينى أولاً .. الأطباق ؟ سأغسلها طبعًا .. ظننت هذا عملى منذ تزوجنا .. لكن ليس مسح الأرضية من فضلك ، لأننى لا أعرف كيف يمارسون هذا العمل ، ولأننى لا أتصور نفسى أمارسه ..

هل فرغت يا عزيزتى ؟ تعالى إذن واجلسى جوارى ..

سأتلو عليك الخطاب ..

* * *

عزيزى علاء :

كتبت لك فى خطابى الأخير عن انتظارى لمجموعة من المسئولين النرويجيين .. والحقيقة أننى لم أكن على علم تام بهدفهم من هذه الزيارة .. لا أحب السكندنافيين عامة ، ولعل المدير السابق (ستيجوود) له دور ما فى هذا .. يخيل إلى أن الطبيعة تطبع شخصية المرء ببصمة لا يمكن محوها .. البريطانيون باردون لا ينفعلون .. هذا هو ما يحتمه طقس بلادهم اللعين .. كذلك هؤلاء القوم من الشمال ، الذين يفطرون على الرنجة ويتحملون البرد طيلة العام .. لهذا يكتسبون هذا الطابع الجليدى البارد ثقيل الظل نوعًا .. لقد اعترف (سومرست موم Somerset Maugham) بأنه لم يطق قط مسرحيات النرويجى (إبسن Ibsen) لأنها سخيفة ثقيلة الظل مملة ، وكانت صالحة لعصرها لا أكثر .. هذا شىء لم يجرؤ أحد على الاعتراف به بين المثقفين .. أما وقد قرأت هذا الاعتراف فإننى أحييه وأرقص له طربًا ..

جاءت المجموعة إلى (سافارى) وعرفت أنهم خليط غريب من الأطباء وخبراء تجميد الأسماك والأنثروبولوجيين ! كلا .. لست مجنونًا .. إن الحقيقة هى ما قرأته أنت بالفعل والسبب ستعرفه فيما بعد ..

قائد الفريق هو إدارى نرويجى يدعى (تريجى كولفارد) .. إنه اسم نرويجى جدًا كما ترى يجعل الدم يتجمد فى عروقك .. وهو كذلك نرويجى جدًا كما تراهم فى القصص المصورة ..

الشخص الثانى المهم فى الفريق امرأة .. والمرأة مهمة دومًا ولها ثقل يعرفه كل خبير فى التصوير الفوتوغرافى .. إنها عالمة (أنثروبولوجى Anthropology) تدعى (مارجريت جيرهاسن) .. إنها تمثال بارد أشقر الشعر لمحاربى الشمال .. فى الأربعين من العمر على قدر من الجمال ، لكنها تغلفه بخشونة وعدد لا بأس به من الأوردة النافرة ، وأنامل مكسوة بالتبغ ..

هناك أشخاص آخرون لن أصدع رأسك بهم ، وسوف يأتى دور كل منهم فى حينه ..

كان هناك الكثير من الكلام عن الهدف من قدومهم ، لكننى خمنته على كل حال .. حين يرتبط النرويجيون مع (كينيا) يكون السبب هو قبيلة (توركانا) .. كل من يعمل فى القارة السوداء يعرف هذا ..

بعض هذه الأسباب أثبت أنه حقيقى ، والبعض الآخر تبين فيما بعد .. كانت أسبابًا عجيبة جديرة بأن أقصها عليك .. وأعتقد أنك ستضحك طويلاً حين تسمع القصة كاملة ، وإن كنت لن أضحك مثلك بالتأكيد ...

* * *

2ـ توركانا ..

عزيزى علاء :

كانوا ينتمون إلى منظمة (نوراد) ..

و(نوراد) إن كنت لاتعرف يا (علاء) هى منظمة نرويجية جعلت همها الأوحد مساعدة قبائل (توركانا) البائسة على الحياة وعلى التحضر ..

كل هذا جميل .. لكن ما دورى أنا ؟

قال لى (كولفارد) وهو يجلس فى مكتبى يضغط بلاتوقف على أزرار فى حاسبه الآلى النقال :

ـ « نحن نعمل من دون وحدة طبية ثابتة تدعمنا .. نحن بحاجة لمستشفى وأطباء ومختبرات .. »

ـ « عندكم منظمة الصحة العالمية .. وهى تملك الإمكانيات والمال .. إنهم أقدر على معونة برغوث فى القطب الشمالى لو راق لك التشبيه .. »

لم يبتسم .. هذا هو ديدن النرويجيين ، وقال :

ـ « هم لايريدون مساعدتنا .. إنهم مكتفون ذاتيًا ولايؤمنون بأهمية ما نقوم به .. »

ثم أشار إلى كأنه يتهمنى ، وقال :

ـ « وحدة (سافارى) أكثر مرونة ويمكننا التعاون معها .. إن لدينا الخبراء ولديكم الوحدة الطبية ووسائل النقل .. »

لم أر ما يمنع .. إنهم مصممون ومن الواضح أنهم يعرفون ما يقومون به .. ثم إنهم على استعداد لسداد تبرع لابأس به للوحدة ، وأنت تعرف أن التبرعات أمر ترحب به الوحدة فى كل وقت ..

هنا فقط فكرت فيك يا (علاء) .. هذه الحملات تناسبك أكثر من أى واحد آخر .. تتسلق (كليمنجارو) أو تتوغل وسط الأحراش .. لا أستطيع أن أتخيلك ثابتًا فى مكانك متعقلاً .. لكنك للأسف لم تعد هنا .. من يدرى ؟ ربما لانلتقى أبدًا بعد هذا ..

وبدأت ترشيح الفريق المناسب وانتقيت بعض الأسماء .. لكنهم كما هو واضح كانوا بحاجة إلى أحد أطباء المناطق الحارة .. وكنت أنا مناسبًا لأننى مختص بهذه الأمراض ، بالإضافة إلى أننى رئيس الوحدة وأملك الكثير من الصلاحيات ..

استغرق الأمر بعض الوقت حتى أقنعونى .. أعرف أنك لاتحب التفاصيل الإدارية لهذا لن أصدع رأسك بها .. لكنى كنت

واضحًا فى كلامى : لن أترك الوحدة أكثر من يومين .. سأذهب بشكل رمزى ، وبعد هذا فليدر دولاب العمل من تلقاء نفسه .. ووكلت إدارة الوحدة إلى (جوتييه) .. إننى أعرف أنه يملك الكفاءة والرغبة ..

ما هى المهمة ؟

كل شىء فى الواقع .. أنت تعرف أن قبيلة (توركانا) تعانى الفقر والبطالة ومشاكل الجفاف .. أضف لهذا أن جميع أفرادها تقريبًا مصابون بداء الحويصلات المائية Hydatid cyst وهى كما يبدو عادة بذيئة لا ينوون التخلى عنها بسهولة ..

لا أنسى هنا أن أذكر مشاكلهم مع المراعى ، وهو ما يؤرق النرويجيين .. فهم يؤمنون بأن الرعى يفسد الأرض التى يتم عليها .. وهكذا لا تجدى نفعًا حين يأتى الجفاف على مناطق أخرى ، بينما القبيلة لا تكف عن الترحال بأغنامها وأبقارها .. بالتالى هى تنشر الجدب حيثما ذهبت كأنها تحمل لعنة إغريقية ما ..

من الصعب أن تجد قبيلة جديرة بالرعاية أكثر من هذه على وجه الأرض ..

وبرغم أنى فى (سافارى) منذ سنوات لم أعد أذكرها ؛ فإننى لم أتعامل مع هذه القبيلة من قبل ..

كان الواجب ينادينى فقبلت ..

★ ★ ★

من نافذة الطائرة رحت أرمق (كينيا) التى لم أرها من السماء منذ زمن بعيد ..

حقًا بلاد جميلة .. بكر كما يمكنك أن تفهم البكارة .. ليست (الكونغو) طبعًا لكنها مازالت تحمل البصمات الأولى التى يشتهيها الغربيون من أمثالى ..

جوارى كانت تلك المرأة (جيرهادسن) .. بسيطة جدًا فى قميصها قصير الكمين والسروال الجينز .. أنفاسها تدل بوضوح على أنها مدخنة من الطراز الثقيل .. هذا نمط شائع تعرفه أنت بالتأكيد .. امرأة جافة أقرب للخشونة لابد أنها تدخن كمحرقة الجثث .. كانت تلتقط الكثير من الصور بكاميرا أخرجتها من حقيبتها .. ولا تكف عن الكلام بالنرويجية مع أصدقائها .. نسيت أن أقول لك إنهم جميعًا يتكلمون الفرنسية ببراعة ..

سألتها وأنا أعتدل فى مقعدى :

ـ « أول مرة لك فى كينيا ؟ »

- « الخامسة .. »

قالتها دون أن تنظر لى ..

- « وأول مرة مع (توركانا) ؟ »

- « الخامسة .. »

هذه امرأة مخضرمة إذن .. تعرف الكثير عن هذه القبيلة ..

من بعيد رأيت تلك البحيرة الضيقة .. أعترف بضعفى فى الجغرافيا .. أنا أعرف أن هناك بحيرة كبرى هنا لكنى لا أعرف التفاصيل .. ربما نسيت اسمها أيضًا ..

آثرت الصمت كى لا أبدوا غبيًا .. المفروض أن هذا بلدى وكان يجب أن أقوم بمهمة الدليل لهم ..

إلا أن أحد النرويجيين ، وهو شاب نحيل أخضر العود سألنى فى حماسة :

- « ما هذه البحيرة ؟ »

قالت المرأة فى حدة وهى تواصل التقاط الصور :

- « (توركانا) .. »

هكذا أنقذت حياتى .. ويبدو أنها خمنت أننى لا أعرف فواصلت شرحها بالفرنسية :

- « بحيرة (توركانا) التى كانت تدعى بحيرة (رودلف Rudolf) سابقًا .. إنها تغطى شمال غربى (كينيا) .. يغذيها هذا النهر .. (أومو) .. هل تراه ؟ علـى ضفافها قـامت حضارة عريقـة جدًا .. ولكن .. (حضارة) ليست الكلمـة الصحيحـة .. لنقل (أقدم حياة) .. لقد برهنـت أبحـاث الحمـض النـووى DNA على أن هذه أقدام قبيلة بدائية فى العالم .. »

بدأت أفهم .. لهذا تتواجد عالمة أنثروبولوجية وسط فريق السيرك هذا .. سمعت عن هذا الموضوع من قبل ، لكن التواجد مع خبيرة فى علم الأجناس سيضيف لخبراتى الكثير ..

انحدرت الطائرة لمستوى أقل فاستطعنا أن نرى التماسيح غافية - بسبب الحر - على الضفاف .. لا تصدق أنهـا بهذه الكثرة .. يمكنك أن تفترض أنها جذوع أشجار جافـة علـى الضفتين .. وتصاعدت شهقات المنبهرين ...

هناك أفراس نهر لا يبدو منها إلا أنوفها .. ولكن البحيرة عامـة توحـى بـالقذارة .. هـى أقرب إلـى بركـة آسـنة تغفـو هناك فى الشمس ..

الآن تمتد أمامنا الصحراء الكئيبة .. الصحراء الرهيبة ..

المكان الذى يبدو كالجحيم بالنسبة لنا ، لكنه المكان الذى يطلق عليه الرجل من (توركانا) كلمة (بيتى) ..

* * *

من فوق رأينا مجموعة من البدو .. بدو يختلفون طبعًا عن بدو المنطقة العربية .. وكانوا يراقبون الطائرة فى برود .. تعودت على أنه لم يخلق بعد البدائى الذى لا يلوح للطائرة وهى تهبط لو كان رآها من قبل ، أما هؤلاء فكانوا يتصرفون بلامبالاة غريبة من نوعها .. وعرفت أننا قريبون من عاصمة هؤلاء القوم .. قرية تعسة فيها عشرون كوخًا اسمها (لودوار) .. أما هذه القرية فتعتبر ضاحية واسمها (كاكوما) ، وبها سبعة أكواخ ..

هناك قرى أخرى مهمة مثل (لوكيتشوكيو) و(لوكيتشار) و(إليا) .. ومن الواضح أننا سنزورها جميعًا فيما بعد ..

بدأت الطائرة تهبط محدثة سحابة مريعة من الرمال ، لكنهم لم يكلفوا خاطرهم بإغماض العيون ..

ثم إننا ترجلنا .. مشى (كولفارد) نحوهم وحياهم ملوحًا بيده .. ثم بدأ حديثًا طويلاً معهم لم أفهم منه شيئًا ، وإن أدركت فيما بعد أنه باللغة النيلية Nilotic التى يتكلمونها ويجيدونها ..

إن قبيلة (توركانا) التى يبلغ عددها 350 ألفًا جاءت من السودان أصلاً .. وما زال بعض أفرادها موجودين فى جنوب السودان وشرق (أوغندا) وشمال (كينيا) حيث نحن الآن .. هذه مجموعة من القبائل يطلق عليها اسم (النيلية) لأنها جاءت من حول النيل أصلاً ..

هكذا تحرك الجميع .. مشينا فوق الرمال الحارقة بضعة أمتار ، وفى النهاية استطعنا أن نرى تلك القرية الغريبة التى رأيناها من أعلى وكأن تلك الصحراء تطل عليها .. إنها فى منخفض عميق نوعًا ..

هذا واد .. والوادى قريب من طريق وعر غير ممهد .. وثمة لافتة بالفرنسية تقول (مقبرة السائقين المتهورين) .. غريب أن تجد هذه اللافتة هنا ، لكنى عرفت أن هذا الوادى يلتهم كل السيارات المسرعة التى تكتشف فجأة أن هناك منخفضًا .. هكذا تنقلب السيارة بلا إنذار .

كان عددهم قليلاً .. ثمة فقر عام واضح هنا .. بصعوبة يمكن أن تتبين الرجال من النساء .. إن الرجال أجمل وأكثر رقة من النساء حيث تعتبرهن نساء لمجرد الدقة التشريحية واللغوية لا أكثر .. ولاحظت أن بطون هؤلاء القوم كبيرة فى الغالب كأنهم يعانون استسقاء عامًا ..

هناك أطفال يتصايحون ، وكلاب تنبح .. الغريب أن حال هذه الكلاب كان أفضل من البشر ..

اتجه (كولفارد) فى ثقة وسط القوم إلى رجل متقدم فى السن ، يقف على ساق واحدة ويرمقنا فى حدة ، مغمضًا عينًا واحدة على سبيل التركيز ..

لاتحتاج إلى فهم اللغة كى تدرك أن هذا هو الزعيم لهذه القرية .. عار تقريبًا ما عدا قطعًا من صوف الأغنام وجلود البقر يضعها فوق العورات .. ثمة عظمة تخترق شفته السفلى ليبدو أجمل ، وقطعة من السلك ـ الأثر الوحيد للحديد هنا ـ يغرسها غرسًا فى لحم فروة الرأس ..

كنت أعرف هذه العادة وأخالك لاتعرفها .. إنها ـ حسب القواعد الطبية هنا ـ أضمن وسيلة لطرد القمل من الرأس .. والسبب كما هو واضح هو أن هؤلاء القوم لا يستحمون أبدًا .. لا أحسب السبب هو القذارة ولكن ندرة الماء ...

بالإضافة لهذا كان يملك أكبر بطن فى القرية .. بطن لن أقول إنها كانت تتدلى لتلامس الأرض ، حتى لاتتهمنى بالمبالغة ..

قالت لى (مارجريت) وهى تتأبط ذراعى بحركة تلقائية :

ـ « هذا هو الزعيم .. (كوبلكو لاجا) .. إنه رجل أسطورى .. »

نظرت له فى حيرة وهمست فى أذنها :

ـ « واضح .. تصورى أننى عشت فى هذا البلد دهرًا ولم أعرف قط أن هناك بدائيين بهذا الشكل .. »

ـ « هذا هو السحر المميز لهم .. انتزع البدائية ولن يبقى منهم شىء .. »

ثم بدا عليها بعض الضيق وأردفت :

ـ « المشكلة أن هذه مهمتنا بالضبط .. أن ننزع منهم سحرهم البدائى .. »

كان الرجلان القادمان من حضارتين متباعدتين أشد التباعد يتمازحان الآن .. الزعيم يضحك مطوحًا رأسه إلى الوراء .. يمكنك أن ترى أن أكثر أسنانه تم انتزاعها .. وفى هذه المرة لم أخجل من أن أميل على النرويجية استفهم منها عن سر هذه الأسنان الغريبة ..

قالت هامسة :

ـ « الكزاز (التيتانوس Tetanus) .. إن المرض متفش هنا .. ولما كانت أهم علامات الكزاز تقلص الفكين بحيث يستحيل فتح الفم ، فقد تحايل القوم بهذه الحيلة .. إن المرء منهم يصاب بالكزاز لكن أسنانه المنتزعة تسمح بإدخال اللبن والماء إلى فمه المطبق .. »

فهمت وتذكرت عادة مماثلة لدى قبائل الماساى Masai التى تعاملت معها كثيرًا .. ثم إن هذه الطريقة تجعل جماجم هؤلاء القوم شبه مختومة .. يمكنك أن تتعرفها فى أى مكان ..

وبالفعل نظرت من حولى فوجدت أن هذه العادات موجودة لدى كل القوم الموجودين ..

إلى دار الزعيم اتجهنا ، و(دار الزعيم) عبارة فضفاضة لأن داره عبارة عن قطعة من جلد الماشية معلقة بين عصوين خشبيتين .. وقد جاءت امرأة تحمل جرة مليئة بسائل ما .. كانت مرتبكة خائفة وأسقطت بعض ذلك السائل على الأرض ، فصاح الزعيم يزجرها .. بل إنه صفعها أمامنا .. سقطت أرضًا فوجه ركلة ممتازة إلى كليتها ...

لم نحاول التدخل فى هذه الشئون العائلية ، لكننا شربنا ذلك المزيج الكريه فى تقزز .. إنه لبن ممزوج بالعسل على الأرجح ..

قدم النرويجى للزعيم كيسًا من الخيش ، فتحه هذا الأخير فأخرج بعض الطباق ، ثم راح يمضغه فى تلذذ وهو يصغى لمحدثه .. ومن حين لآخر يبصق بصقة كبيرة .. هذه أمور هامة هنا .. الكل يبصق .. والسبب أن الكل يمضغ الطباق طيلة الوقت ..

ثم إن (كولفارد) فاز بقبضة أخرى من الطباق ، فلم يتردد .. دسها بين شدقيه وراح يمضغ هو الآخر ..

كان الزعيم يشير إلى خيمة أخرى ويتكلم .. يشير ويتكلم ..

استدار لى (كولفارد) وقال باسمًا :

- « زوجة الزعيم الرابعة مريضة .. أعتقد أن دورك فى الموضوع قد حان .. »

كنت أتساءل فى سرى : كيف لا يمرض إنسان فى هذا المناخ ؟ سيكون الشاذ والغريب ألا تمرض ..

اتجه نحوى رجل نحيل أعرج يتوكأ على عصا .. وراح يثب وثبًا وهو يقتادنى إلى خيمة مكشوفة أخرى .. تخيل غرفة بلا جدران وإنما لها سقف فقط .. لفظة (خصوصية) لا وجود لها فى قاموس (توركانا) ..

تحت السقف المصنوع من جلد الماشية كانت امرأة راقدة .. زوجة الزعيم طبعًا فلابد أنها فى قمة فتنتها الأنثوية وأناقتها .. بالفعل كنت على حق .. المزيد من السلك فى رأسها الحليق ورائحة كريهة أشد من رائحة الزعيم ذاته ..

كان معى ممرضتان من وحدة (سافارى) وطبيب يونانى شاب يدعى (ميكوس شىء ما) ، فقمت بفحص المرأة بدقة .. فحص من دون أن أسمع حرفًا عن تاريخ الحالة طبعًا ..

لاشك فى أنها تعانى صدمة عنيفة .. النبض السريع المضطرب وضغط الدم المنخفض .. لكن ما السبب ؟ لا أرى أثرًا للنزف من أية فتحة من فتحات جسدها .. هى لا تعانى جفافًا برغم حرارة الجو التى تجاوزت 47 درجة مئوية .. هل هو قلبها ؟

كان الطبيب الشاب يصغى بعناية ، ثم نزع المسماع من أذنيه وناولنى إياه وقال فى اهتمام :

- « هلا أصغيت يا سيدى ؟ »

دسست المسماع فى أذنى وأصغيت فسمعت صفيرًا .. إن شعبها متقلصة تمامًا ..

هنا التمعت الفكرة فى ذهنى .. هكذا يأتى الإلهام فجأة .. لا فضل لك فيه بل هو هبة ربانية تأتى أو لا تأتى .. فصحت فى حماسة :

- « هذه صدمة حساسية anaphylactic shock .. لا شك فى هذا ! أعطها بعض (الكورتيزون) والكثير من السوائل الوريدية .. »

قال فى حيرة :

- « صدمة حساسية ؟ ولكن من أى شىء ؟ »

- « وكيف لى أن أعرف ؟ أنقذ حياتها أولاً ثم حاول الفهم .. أعطها بعض (الإبينفرين) تحت الجلد كذلك .. »

وجلست على الرمال جوارها أنتظر نتيجة ما نقوم به ..

بعد نصف ساعة أدركت أنها لا تتحسن ..

على أن شيئًا غريبًا حدث فى هذه اللحظة ، فقد أخطأ الطبيب الشاب ونطق عبارة ما باليونانية .. هنا - كأنه السحر - دبت الحماسة فى القوم .. نهضوا وراحوا ينادون بعضهم ، ويتبادلون الضربات على الكتفين .. وسمعت لفظة تتردد بإلحاح :

- « إيموسوكوت لوكينجارين ! إيموسوكوت لوكينجارين ! »

- « إيموسوكوت لوكينجارين ! إيموسوكوت لوكينجارين ! »

نظرت للفتى بغباء ونظر لى ببلاهة .. لابد أنه يبدو مثل أحد أصنامهم أو شىء من هذا القبيل .. فى قصة (العالم المفقود Lost world) لـ (كونان دويل Doyle) انبهر المتوحشون بمنظر البروفسور (تشالنجر) لأنه يبدو كقرد ضخم غاضب وعبوه .. لابد أن هذا الموقف يتكرر بشكل ما هنا ..

على كل حال يمكن فهم هذه التفاصيل فيما بعد ..

نهضت مسرعًا إلى حيث كان (كولفارد) مع الزعيم ، وقلت له إن الضرورة تحتم نقل هذه المرأة إلى وحدة (سافارى) .. فلا أضمن حياتها خلال ساعتين من الآن ..

عاد يتبادل الحديث مع الزعيم .. ثم التفت لى وقال :

- « إنه يضربهن دائمًا .. »

- « من هن ؟ »

- « زوجاته الست .. يقول إن الرجل الجيد يجب أن يضرب زوجاته .. »

قلت فى غيظ :

- « لا شأن لى بنظرته إلى المرأة .. لكن هذه المرأة لاتعانى نزفًا داخليًا .. لم تهتك ضربته طحالها لو كنت تفكر فى هذا .. إنها تعانى حساسية مفرطة جراء شىء ما ، ولا أستبعد أن تكون قد لدغت من كائن لا أعرفه .. فقط لابد أن تذهب إلى (سافارى) .. »

عاد يتكلم مع الزعيم ، ثم قال لى :

- « يقول إنه لايريد فقدها .. فقد كلفته خمسة عشر جملاً ! »

- « قل له إننى أحافظ على رأس ماله ! »

ثمة قصة حقيقية حكاها (جيفرى جورر Gorer) فى كتابه الشهير (إفريقيا ترقص Africa dances) .. يقول إن مبشرًا هولنديًا أصيبت زوجته بالمرض ، وكان لديه خادمان أمينان من أكلة لحوم البشر المهذبين .. اضطر إلى السفر وعهد للخادمين بزوجته .. بعد أسبوع عاد فلم يجد زوجته .. لكن

الخادمين قدما له - فى فخر وكبرياء - مبلغًا من المال هو ثمن المرأة .. لقد شعر الرجلان الأمينان أن الزوجة ستموت حتمًا ولن يفيد منها زوجها ؛ لذا قاما بقتلها وباعا لحمها لأهل القرية ، وادخرا ما حصلا عليه من مال للزوج لدى عودته .. هكذا حفظا للزوج السعيد حقه ، ولم يخسر مليمًا من زوجته !

إنه تصرف يدل على أمانة شديدة ، ولابد أن الرجلين دهشا لأن الزوج لم يكافئهما ..

هذا التصرف أيضًا يدلنا على نظرة هؤلاء البدائيين للمرأة .. باعتبارها استثمارًا يجب الاستفادة منه ، مثلها مثل أية بقرة أو رأس ماشية ..

على كل حال اقتنع الزعيم بمنطقى النفعى - وهو شىء عسير جدًا كما ستعرف فيما بعد - ووافق على أن ننقل الزوجة إلى الطائرة ..

وأقلعت الطائرة عائدة إلى (سافارى) .. لكن كان على أن أبقى هنا لأن عملنا لم يبدأ بعد ..

* * *

3- لكننا نكره السمك!

عزيزى علاء :

كان التوركانيون يحيطون بالطبيب اليونانى الشاب الذى كان فى أسوأ حال من الرعب .. ودنا منى ليسألنى فى هلع عن معنى هذا .. هل يبدو لحمه من النوع الممتاز الذى يتوقون إليه ؟

نظرت إلى الخبيرة (جيرهادسن) مستغيثًا فرأيتها تتأمل المشهد باهتمام .. ثم قالت لى وهى تضحك :

- « إنه يونانى ! إن حظنا عظيم ! لو رتبنا الأمر بعناية لما ظفرنا بهذا التوفيق .. »

سألتها مغتاظًا :

- « سأكون شاكرًا لو أوضحت لى سبب روعة حظنا .. »

قالت دون أن تهتم بغيظى :

- « هؤلاء القوم يعتقدون بأنهم أحفاد الإسكندر الأكبر المقدونى ! »

- « عظيم ! التشابه الأسرى شديد حقًا ! »

- « أنا لا أمزح .. لقد جاءهم الإسكندر الأكبر فى الماضى السحيق .. انبهروا به وحاول أن ينظم لهم حياتهم .. فى الحقيقة عبدوه باعتباره إلهًا أبيض لا يقهر أتت به الملائكة .. غسلوا جسده باللبن على سبيل التكريم ، وأطلقوا عليه عدة أسماء منها (إيموسوكوت لوكينجارين) أو (لونجور كيلى) - ومعناها (الرجل ذو الأسنان السوداء) - أو (إيكنجاريكينان) - ومعناها (الذى يساعدنا) - وهم يعتقدون أن الإسكندر تزوج واحدة من جداتهم .. أنجبت المرأة طفلاً أبيض وطفلاً أسود .. طبعًا جاءوا هم من الطفل الأسود .. وهذا يعطيهم نوعًا من الفخر الدائم .. إنهم من سلالة الإسكندر على عكس باقى الأفارقة .. وهم يعتقدون أن ما يلبسه حول عنقه ومعصميه هو ذات ما يلبسون .. »

- « ولهذا يعتبرون أى شخص يونانى ضيفًا فوق العادة .. ولكن هل يعرفون اللغة اليونانية حين يسمعونها ؟ »

- « بالطبع .. هم لم ينسوا كلام الإسكندر بعد كل هذه القرون .. »

كان الإسكندر الأكبر مثل (بونابرت) - مواطنى - يعرف كيف يستغل الدين للوصول إلى ما يريد .. الأول اندمج فى عقائد كل شعب زاره فى مصر وفى قلب إفريقيا .. والثانى تظاهر بالإسلام ..

وفى الحالتين كانت النتيجة مفيدة استعماريًا بما لايقاس .. بينما برهن كل مستعمر يصطدم بالدين على أنه يحفر قبره بيده .. من المثير هنا أن نتذكر أن (بونابرت) كان شديد الإعجاب بالإسكندر الأكبر ، ودرس أساليبه بعمق .

اتجهنا إلى المجلس الذى أقامه زعيمنا النرويجى لزعيم القرية .. هناك كانوا يتجادلون فى أمور كثيرة .. طبعًا لم أفهم حرفًا لكن الزعيم الإفريقى لم يبد راضيًا ...

قررت أن أزجى الوقت بالتقاط بعض الصور ، فأخرجت الكاميرا الممتازة التى أعتز بها كثيرًا و ...

لا أعرف ماحدث ولا من الوغد الذى ركل يدى التى تحمل الكاميرا فطارت منها إلى الرمال .. نظرت للوراء فى عدوانية فوجدت أنه ذلك الرجل الأعرج الذى كان يرافقنا ، وقد أطار الكاميرا بالعكاز الذى يحمله ..

قالت لى (جيرهادسن) وقد رأت تحفزى :

ـ « هم يكرهون التصوير الفوتوغرافى ولا يطيقون الغرباء .. يعتقدون أن الكاميرا تخطف أرواحهم .. »

ـ « لكنك التقطت الكثير من الصور .. »

ـ « لأنهم يعرفوننى .. لكن قد تكون أنت ساحرًا خطيرًا .. »

هكذا تخليت عن الكاميرا ، وإن ظللت أرمقها فى حسرة مدفونة فى الرمال .. أدعو الله ألاتكون قد تهشمت .. إنها باهظة الثمن أو كذلك بالنسبة لى على الأقل ..

كانت المناقشة حامية ، لكنى لم أفهم حرفًا ..

فى النهاية نهض الزعيم (كوباكو لاجا) فى حماس وأشار لأحد الرجال فسرعان ماجاءت مجموعة من الجمال .. وفهمت أننا سننتقل لمكان ما ..

طبعًا لست خير من يركب الجمال ، وأعتقد أنها خبرة مرعبة ، لكن المرأة الصخرية لم تطلق صرخة واحدة بينما الجمل البارك ينهض متأرجحًا بها ، لذا كتمت صرخاتى وأغمضت عينى وتمسكت بالطبيب اليونانى الذى جلس أمامى ..

أخيرًا راحت سفن الصحراء المرهقة للعظام تتقدم ببطء نحو الأفق ..

هل هذا سراب ؟ تلك البحيرة وسط الصحراء ؟

لا .. إنها بحيرة (توركانا) التى رأيناها من الطائرة .. الآن نراها عن كثب وبشكل أفضل .. لم أنس أنها تعج بالتماسيح لكن هؤلاء القوم يعرفون مايفعلون ..

المشهد الغريب هنا هو أن هذه البحيرة راكدة المياه جدًا .. كأنما هى مصرف للمياه .. والمشهد الأغرب الذى لم أتبينه من الجو ، ولم أتبينه إلاحين دنونا أكثر هو تلك السفينة العملاقة الجانحة فى وسط البحيرة .. مغروسة فى الطين حتى المنتصف ...

كانت هناك عدة قوارب مقلوبة .. قوارب يبدو أنها كانت متقنة الصنع ، وقد كتبت عليها كلمات ما بحروف لاتينية .. هناك شباك ممزقة ملقاة هنا وهناك ..

ومن بعيد كان هناك تمساحان يتسليان بتمزيق شبكة يحاول كل منهما انتزاعها من أنياب الآخر ..

الخلاصة : كانت هذه أتعس مصيدة أسماك رأيتها فى حياتى ..

بركت الجمال فترجلنا .. كنت أحاول بصعوبة أن أقف على ساقى اللتين تحولتا إلى عش نمل ..

قدماى تنغرسان فى الرمال .. أحاول التماسك .. أمشى ...

وقالت لى (مارجريت) وهى تئن مما جعلنى أشعر بأنها حية نوعًا .. إنها ليست (روبوتا) بعد كل شىء :

ـ « هذا هو ما تبقى من مشروع (نوراد) الضخم .. »

ـ « مشروع ماذا بالضبط ؟ »

ـ « مشروع مصنع تعبئة (توركانا) ! »

★ ★ ★

يعتبر مشروع (نوراد) مضرب المثل فى حماقة منظمات المساعدة الدولية أحيانًا ..

لقد أراد النرويجيون أن يقدموا خدمة لهذه القبائل .. بالإضافة إلى إيمانهم التام بأن الرعى يتلف التربة .. إن قبيلة (توركانا) كثيرة التنقل مع مواشيها .. وهكذا تنتقل من أرض خصبة لأخرى كى تقضى على الأخضر فيها ثم تتركها .. وهذا يجعل الأرض عاجزة عن الانتعاش بعد وقت الجفاف .. ما هى خبرة النرويج التى يمكن أن تقدمها لهذه القبائل ؟ طبعًا الأسماك .. لأن السمك هو عصب حياة النرويج ..

هنا خطرت لأحد العباقرة فكرة استغلال الثروة السمكية فى بحيرة (توركانا) .. إن البحيرة تحوى أسماك فرخ النيل والتيلابيا .. والسمك لا يرعى ولا يتلف الحقول ..

سنحول التوركانا من رعاة إلى صيادين !

(*) على سبيل التذكير .. كل المعلومات هنا حقيقية ..

عام 1971 جاءت بعثة لتدريب الأهالى .. ثم زودوهم بعشرين قاربًا للصيد .. أنفق على المشروع مليونا دولار .. وكانت التكاليف مروعة بالإضافة إلى الحاجة لتوليد كهرباء تشغل ثلاجات السمك فى وسط الصحراء ..

ولم يعبأ أحد بترديد الأهالى العراة :

- « لكننا لا نحب السمك ! »

- « ستحبونه يا حمقى ! »

وعمل الأهالى بالسخرة فى مشروع الأسماك هذا .. كانوا يكرهون العمل بشدة ويطلقون على البحيرة اسم (أمانا إيمويت) أى (أرض العدو) !

ثم جاءت الكارثة لتضرب النرويجيين فى أسنانهم حين جف نهر (أومو) فغاضت مياه البحيرة ، وهكذا ماتت الأسماك وانتشرت التماسيح وعلقت السفينة النرويجية وسط البحيرة ..

هنا فقط ترك (توركانا) البحيرة وعادوا لمواشيهم الحبيبة ..

وقالت لى النرويجية :

- « مهمة هذه البعثة هى إعادة إحياء المشروع .. نتفاوض مع هؤلاء القوم .. نقدم لهم المعونات والعلاج الطبى .. نناقش الموضوع .. »

- « لكن الفكرة أثبتت بلاهتها .. »

- « نحن نريد إعادة التجربة عند نهر (توركويل) .. هذا النهر يفيض ثلاثة أشهر ويجف أربعة .. سوف نحصل على الأيدى العاملة وقت الفيضان .. »

هكذا بدأت أفهم هذا الخليط العجيب الذى تتكون منه مجموعتنا ..

لكن الفكرة لن تنجح .. حتمًا لن تنجح .. وجوه هؤلاء القوم الخشنة الصارمة تدل على الفشل القادم ..

* * *

4 ـ مسح طبى ..

عزيزى علاء :

فى المساء اضطررت إلى استقلال الطائرة عائدًا إلى (سافارى) .. كانت هناك مشكلة ما تستدعى وجودى ولم يستطع مساعدى اتخاذ قرار ..

وعرفت أن النرويجيين سيقيمون فى هذه القرية الغربية ، مما جعلنى أغبط نفسى على حسن حظى .. هنا فقط ترحب بمصائب العمل ..

بعد ما فرغت من تلك المشكلة الإدارية ، تذكرت المرأة التى أرسلناها هنا فى الصباح .. الزوجة المصابة بصدمة .. سألت عنها وأنا أتوقع أن يقولوا إنها ماتت ، لكن الأطباء قالوا فى مرح إنها تتحسن وإنها فى غرفة الجراحة الآن ..

هتف أحدهم وهو يلوح بفيلم موجات فوق صوتية :

ـ « هل تعرف ما وجدناه ؟ حويصلة مائية فى بطنها وقد انفجرت ! »

هكذا اتضحت القصة .. إن انفجار هذه الحويصلات داخل

الجسم البشرى كما تعلم يسبب صدمة حساسية شنيعة .. لكن هذا فى حد ذاته كارثة على المدى البعيد ..

هذا الحيوان زوجها وجه لها ركلة فى المكان الاستراتيجى بالضبط .. فجر بالونًا مليئًا بالسائل القاتل داخل بطنها .. حتى على المستوى الاقتصادى هذا ليس تصرفًا حكيمًا ، فلا أحد يركل بقرته بهذا العنف .. لكن القصة كذلك وهى واضحة .. وهذا هو سبب كلامه عن ضرب الزوجات حين فحصنا زوجته .. لقد ربط بين الحادثين وهو محق على كل حال ..

قلت لهم وأنا أتجه إلى قسم الجراحة :

ـ « هلا بدأتم عقار (ألبندازول Albendazole) ؟ »

ـ « بدأنا يا سيدى حتى قبل الجراحة .. »

انتزعت سترتى وبدأت ألبس ثيابًا معقمة .. طبعًا لم أتعقم ولكن ارتديت ما يسمح لى بدخول غرفة الجراحة .. ثم دخلت الحجرة ووقفت ألصق أنفى المغطى بالقناع بكتف الجراح ..

هناك كان الجراح الألمانى (شرودر) يعمل فى بطن المرأة ..

كانت الفوضى ضاربة أطنابها بالداخل .. لقد أغرقت الحويصلة

كل شيء من حولها .. هذا السائل المميت .. كان يقوم بالكثير من الغسيل والشفط محاولاً أن يقلل الضرر قدر الإمكان ..

شعر بى من خلفه ، فقال دون أن ينظر للوراء :

ـ « مرحبًا يا ريس .. »

ـ « هل ضغط الدم مستقر ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. إن الدم ينزف جيدًا .. »

ثم أشار لى إلى المساريقا حيث استقرت عدة حويصلات منتفخة كئيبة المنظر .. وقال :

ـ « يجب أن أنتزع هذه أيضًا .. »

قلت له مفسرًا :

ـ « المرأة من قبيلة (توركاتا) .. »

ـ « عرفت هذا .. كل أفراد هذه القبيلة مصابون بالداء .. إلىّ بالسيتمريميد .. »

ناولته الممرضة محقنًا ، فبدأ يمارس الطقوس المعتادة فى هذه الأمور .. يثقب الحويصلة .. يشفط بعض ما فيها من سائل .. يحقن السيتريميد .. ينتظر عشر دقائق حتى يقتل

السائل كل الحويصلات الصغيرة السابحة فى الحويصلة الأم .. ثم يبدأ فى انتزاع الحويصلة ببراعته الجراحية .. هذا هو أسلوب PAIR أو الحروف الأولى من (الثقب ـ الشفط ـ الحقن ـ الاستئصال) ..

قال لى وهو يواصل عمله مع حويصلة أخرى :

ـ « هناك حويصلات أخرى فى الكبد .. سأفعل ما أقدر عليه ، لكن لابد من مظلة كاملة من عقار (ألبندازول) .. »

ـ « بدأنا بالفعل .. سنحشوها بهذا العقار حتى تختنق .. »

وغادرت غرفة الجراحة ، وأنا أجفف عرقى .. لحسن حظ المرأة أننى كنت ذكيًا وأن الجراح كان بارعًا وأن النرويجيين وصلوا فى الوقت المناسب ...

لن يفقد (كوباكو لاجا) ماله على كل حال ..

* * *

هذا الجزء لم يكتبه لى (سينوريه) طبعًا ، لكنى شعرت بأنه ضرورى للقارئ غير المتخصص كى يفهم عن أى شيء نتكلم بالضبط .. وطبعًا يمكن لمن لا يهتم بالتفاصيل أن يثب إلى الجزء التالى .. هذا لن يضايقنى بالطبع ..

من بين قبائل العالم ، تعتبر قبيلة (توركانا) هى متحف مرض الحويصلات المائية Hydatid cysts وهو مرض يعرفه كل من جاء من مجتمع رعوى .. إنها ثلاثية (ماشية – بشر – كلاب) ..

لن تحب منظر الدودة التى تسبب هذا المرض .. إنها تبدو كمصاصى الدماء أو الكوابيس .. دودة شريطية هى صغيرة الحجم جداً ..

هذه الدودة تعيش دورة حياة معتادة من تلك المصورة فى أى كتاب أحياء رأيته فى المدرسة .. تعيش فى أمعاء الكلاب .. تبيض .. ينزل بيضها مع البراز ليختلط بالعشب .. تأكله الماشية .. تجد طريقها إلى عضلات الماشية وأحشائها لتكون تلك الحويصلات اللعينة .. سوف تغلق الدائرة حين يلتهم الكلب هذه القطع من الماشية ..

ولكن ما دخل الإنسان فى الموضوع ؟

الحقيقة أن كثيرًا من الآفات يكون حظها أسود بقدر ما يكون حظ الإنسان الذى يتعامل معها أسود .. وقد لاحظ الدكتور (زنسر) أن الإنسان هو الذى ينقل التيفوس إلى القملة تعسة الحظ التى تتغذى عليه ، فلابد أن مدارس القمل

تنصح بالتخلص من الإنسان ومكافحته بالمبيدات لأنه الخطر الأكبر على صحة القملة السعيدة .. بالمثل تلقى آفات كثيرة نهاية دورة حياتها لو اعترض طريقها إنسان ..

فى حالتنا هذه يلعب الإنسان دور الماشية .. وذلك حينما يلتهم طعامًا تلوث بفضلات الكلاب .. وكما هو واضح فهذا ليس فى مصحلة الدودة لأنه طريق مسدود فى دورة حياتها ، ما لم يلتهم الكلب إنسانًا طبعًا .. أو يلتهم الإنسان إنسانًا ..

لكن بعيدًا عن هذه الخواطر الكانيبالية ، تستقر البيضة فى أمعاء الإنسان .. وهنا تبدأ دورتها المخيفة ..

تتحرر منها كائنات شيطانية صغيرة تغادر الأمعاء وتستقر فى عضو من أعضاء المريض .. فى ثلاثة أرباع الحالات تفضل الكبد .. أحيانًا تفضل الرئتين أو المخ أو العظام .. وهناك تتكون الحويصلة المائية ..

إن للحويصلة المائية منظرًا مميزًا خاصة فى الرئة ، يعرفه الأطباء وقد وصفوه قديمًا باسم (زهور السوسن على ماء البحيرة Lily on lake) .. هذا تشبيه آخر من تلك التشبيهات الطبية الشاعرية ..

كما هو واضح فإن الجويصلة المائية حويصلة .. غشاء

ملىء بالماء .. مشكلة هذا الماء أن انفجاره يحدث صدمة حساسية شديدة قاتلة غالبًا ، والمشكلة الأهم أنه يحوى حويصلات صغيرة للدودة تشبه الرمال .. سوف تستقر هذه الحويصلات على أعضاء أخرى وتبدأ الدورة الخطيرة .. وفى هذه النقطة تتصرف الحويصلة المائية كالسرطان الذى تنفصل خلاياه لتثبت نفسها على أعضاء أخرى وتنقسم ..

الآن يمكننا فهم الإجراء الذى قام به الجراح قبل انتزاع الحويصلة .. لقد حقنها بمادة (السيتريميد) كى يقتل الحويصلات الوليدة .. وبهذا يحتاط لانفجارها أثناء محاولة استئصالها ، وهو ما يعنى هلاك المريض على الأرجح ..

هناك نوعان من داء الحويصلة المائية : النوع الأول الذى تنقله الكلاب وفيه توجد الحويصلات الصغيرة داخل السائل .. النوع الثانى تنقله الثعالب وفيه توجد الحويصلات الوليدة خارج الحويصلة الأم .. وهذا يعنى خطرًا لا شك فيه .. لكن هذا النوع الأخير ليس فى (كينيا) لحسن الحظ .. ليس فى أى بلد عربى كذلك ..

مع تطور الطب صار من الممكن أن يساعد علم العقاقير الجراحة ، وفى حالات معينة يمكن للعلاج الطبى أن يقتل

الحويصلة حتى تتكلس .. ومن البداهة أن العلاج الطبى هو الحل الوحيد بالنسبة لذلك النوع الخبيث الذى تنقله الثعالب ..

بقى أن أقول إن المرض ليس بعيدًا لهذا الحد .. أقطار عربية كثيرة تعرفه ، وخاصة تلك التى تملك ثروات حيوانية كبيرة أو يمثل الرعى أهمية اقتصادية فيها .. فتش بعينيك حيث تجد ماشية وكلابًا يعيشون جوار البشر ، ولسوف تجد أن تلك الدودة اللعينة قريبة جدًا ...

وبقى كذلك أن أقول إن قبيلة (توركانا) تعانى كلها تقريبًا من هذا الداء .. بل تعد البطن المنتفخة من علامات عظم الشأن فيها ..

* * *

نعود إلى خطابات (سينوريه) ..

فى الصباح الباكر انطلقت بنا الهليوكوبتر من جديد قاصدة أرض (توركانا) ...

هذه المرة كانت عندى أخبار طيبة عن الزوجة ، وخطة عامة عما يمكن عمله هنا .. من الممتع أن تعرف أن لك قيمة ما فى مكان ما .. لا أعبأ كثيرًا بموضوع تعليب الأسماك

هذا ولا أفهم شيئًا عن (الأنثروبولوجى) ، لكنى أعرف كل شىء عن الحويصلات المائية والكزاز .. بوسعى أن أعين هؤلاء القوم ..

هبطت الطائرة وسط الرمال هذه المرة خارج القرية بالضبط ، وأمكننى للمرة الأولى أن ألاحظ تكوينها الغريب .. إن أكواخها موزعة على شكل دائرة .. ومن الواضح أن هذا التكوين لم يأت اعتباطًا لكن ما الغرض منه ؟

استقبلنا النرويجيون وواضح من ثيابهم المبعثرة وعيونهم المنتفخة أن الليلة كانت سوداء .. كيف لا تكون سوداء وأنت تمضيها فى الصحراء فى خيمة ليست سوى سقف من جلد الماشية ؟

الكائن الوحيد الذى بدا منتعشًا حسن الصحة كان تلك المرأة (مارجريت) .. لا أعرف السبب لكن وجهها كان أقل قسوة وخاليًا من التجاعيد ، وقد فكت شعرها الأشقر الذى كانت تعقصه فى خصلة حازمة صارمة ، فبدت أقرب إلى لفظة أنثى .. لا ننكر هنا أنها غسلت وجهها أخيرًا ..

رحبت بى فأخبرتها بآخر الأخبار ..

قالت ضاحكة :

- « جميل .. جميل .. هذا سيجعل علاقتنا هنا أكثر عمقًا .. »

وانطلقنا لنقابل الباقين ، ثم إن رئيسهم أخبر الزعيم بنيتنا فى عمل فحص شامل .. قال الزعيم أشياء قاتمة لم أتبينها ، لكن (كولفارد) قال لى مفسرًا :

- « يقول إن الأجانب يأتون فى كل مرة .. يفحصون الجميع .. ثم يرحلون .. لا شىء يتغير .. »

- « قل له إن الأمر يختلف .. »

- « يقول إن جميعهم يزعم أن الأمر يختلف .. »

- « قل له إننى أبذل ما بوسعى .. وإلا فليذهب للجحيم .. »

هكذا تمت الموافقة ، وانطلقنا نفحص هؤلاء القوم .. لم يكن هناك أى نوع من الخصوصية فى الفحص .. فى عالم بلا جدران تشعر بأنك تعالج قطيعًا من الماشية .. لا أتكلم عن خصوصية المريض فحسب بل خصوصية الطبيب .. كيف تمارس عملك بينما هناك عشرون امرأة تلتف حولك تراقب ما تفعله فى فضول ؟

على كل حال استطعنا أن نجد مجموعة لا بأس بها من حالات انتفاخ البطن غير المبرر .. سوف يتضح على الأرجح أنها حالات (حويصلات مائية) ، وقد أخذنا عينات مرقمة من دم هؤلاء لإجراء اختبارات المناعة عليها ..

حالات سوء التغذية كثيرة جدًا .. ثمة حالة كزاز واضحة لابد أن تنقل إلى (سافارى) .. ملاريا ؟ لم أر حالة منها .. الحقيقة أن هذه القبيلة تحتاج إلى فريق طبى أكبر ويملك الكثير من القدرات المادية ..

وعندما انتهينا من هذا العمل الشاق ، كان الليل قد جاء ..

هى ليلتى الأولى إذن فى أرض (توركانا) ..

★ ★ ★

5ـ شىء يولد ..

عزيزى علاء :

أشعلنا نارًا وجلسنا ، ومن بعيد كان رجال (توركانا) يغنون .. لا أعرف قبيلة فى العالم لا تغنى ليلاً حول النار ...

كانت جلستى بين صديقنا اليونانى ـ حفيد الإسكندر الأكبر ـ والنرويجية التى بدأت أراها حسناء .. ومضى الوقت فبدأ النرويجيون يغنون بعض أغانيهم التى لا تفهم منها حرفًا ..

كانت تغنى معهم ، وتصفق بيدها فبدت لى لم تتخلص بعد من بقايا الطفولة العابثة الخالية من الهموم .. لا أعرف السبب لكن هذه المرأة تملك سحرًا لا بأس به ..

سألتها فى إحدى لحظات صمتها :

ـ « هل أنت متزوجة فى وطنك ؟ »

نظرت لى بدهشة ولفافة التبغ بين شفتيها ، ثم قالت فى شىء من الحرج :

ـ « مطلقة .. لا يوجد زوج يتحمل استغراقى الكامل فى عملى ، ما لم يكن عضوًا فى ذات الفريق .. »

ـ « وماذا عن رجال ذات الفريق ؟ »

ـ « لا أحد يعتبرنى فتاة أحلام فأنا لا أشبه الدمية (باربى) فى شىء .. الواقع إن هذا يريحنى .. لا أتعرض لمضايقات أو عروض زواج .. »

كأن هذه كانت رسالة لى .. لم أكن أنوى التمادى فى الكلام ، لكنى فهمت هذا الإنذار من نية التمادى ..

هذه أشياء لا يقولها المرء يا (علاء) خاصة أنك كنت أحد مرءوسى ، لكنى أشعر معك براحة كبيرة .. أنت تعرف صداقتنا الخاصة المتميزة .. تلك الصداقة التى يدعمها كونى لن أراك على الأرجح ثانية .. هذا يجعلنى أتكلم كما أريد بنفس المنطق الذى يفرغ به المرء أدراج ضميره أمام شخص لا يعرفه يلقاه فى الحافلة .. لابد للسر من الخروج حتى لا ننفجر .. والقصة الشهيرة عن الحلاق الذى حفر حفرة وراح يفضى إليها بسره لا تبرح خيالى .. هل تذكر ما حدث بعدها ؟ برزت من الحفرة شجيرة تصرخ كل زهرة من أزهارها بالسر !

أرجو ألا تنبت منك تلك الأزهار يا (علاء) .. لكنى أرجح أن صراخها لن يصل إلى (كينيا) ..

الحقيقة أننى كهل غريب الأطوار .. عشت حياة قاحلة لا وجود فيها للحب .. فقط الطب .. فقط الفن .. والفن كارثة فى حد ذاته لأنه يطلعك على لمحات من عالم ساحر آخر لم تعشه ولكن عاشه آخرون .. إنه أشبه برائحة طعام شهى من مطعم لا تملك ثمن ارتياده .. هذه الرائحة تخبرك أن هناك طعامًا رائعًا ينعم به بعض الناس لكنك لم تذقه ولن تذوقه أبدًا ...

الغريب فى هذه اللحظات جوار النار أننى أشعر بأن العمر لم ينته بعد ، ولن شيئًا غريبًا يولد فى داخلى .. إنها ـ المرأة ـ فى سن متقدمة .. لن تقل عن أربعين عامًا .. وهذا يجعلها فى نطاق عالمى ..

قلت إنها خشنة عصبية .. نعم .. لهذا أشعر بريبة شديدة من هذه العين الجديدة التى نبتت لى فى الليل ، والتى تجعلنى أشعر براحة بالغة للقرب منها .. لو قلت لى أمس إننى سأعجب بها لاتهمتك بالخبال ، ولو قلت لى اليوم إننى كنت أمقتها لاتهمتك بالجنون ..

سألتنى غير عالمة بما يدور فى رأسى :

ـ « متى تعود زوجة الزعيم ؟ »

ـ « لا أعرف .. الجراح هو من يحدد أمورًا كهذه .. »

ـ وقالت فى خبث :

ـ « أنت حرمته يدًا عاملة مهمة هنا .. إن كل يوم تمضيه بعيدًا يكلفه مالاً .. »

ـ « يمكنه أن يتزوج ثانية .. »

ـ « هذا يكلف مالاً أكثر .. »

ثم أشارت إلى أكواخ .. الدائرة الغريبة التى لاحظتها صباحًا ، وقالت :

ـ « هذا كوخ الزوجة الأولى .. إنها تسكن جوار حظيرة الماشية وهذا يعتبر شرفًا هنا .. الزوجات الأخريات يسكن على أطراف الدائرة .. »

ثم أشارت إلى أذنها اليسرى وقالت :

ـ « هل لاحظت القرط الأزرق فى أذنها اليسرى ؟ »

هززت رأسى بمعنى أننى لا أبالى بهذه الأمور ، فقالت :

ـ « معناه أنها فقدت طفلاً .. هكذا تقع مهمة تربية أطفالها القادمين على أمها ! لقد صارت (تابو Taboo) غير قادرة على حماية صغارها .. وعلى ذكر (التابو) .. انظر هناك ... »

فى هذه اللحظة رأيت رجلاً شبه عار من أهالى القبيلة يقف فى وسط الساحة .. كان يلبس ذات الثياب وإن كان اللون الأحمر غالبًا على كل شىء ..

كان غاضبًا .. هذا واضح ولا يحتاج إلى ترجمة ..

تقدم من النار التى أشعلها رجال التوركانا ، وركلها فى غضب فتناثر الشرر فى كل مكان .. ثم راح يصرخ فى غضب حتى توقعت أن يسيل الدم من أنفه ..

همست (مارجريت) :

ـ « إنه ... »

قاطعتها فى ثقة :

ـ « مفهوم .. مفهوم .. إنه ساحر القبيلة ويقول إن الأرواح غاضبة بسبب الرجل الأبيض ، الذى سيجلب الشؤم .. »

ـ « كيف عرفت ؟ »

ـ « القصة دائمًا هكذا .. سأقلق لو لم يحدث هذا .. »

ضحكت كثيرًا .. ضحكة نرويجية لا أجدها باردة جدًا .. وقالت :

ـ « بالفعل هو كذلك .. هذه هى المرة الثالثة له .. »

ثم أشعلت لفافة تبغ أخرى وقالت :

- « هو (لوكيريو) .. كل ساحر عند (التوركانا) اسمه (لوكيريو) .. يعتقدون أنه يمثل الآلهة .. ودوره مهم جدًا .. جانب علاجى وجانب يشبه ما تمارسه ملكة إنجلترا .. توحيد البلاد .. هو يوحد القبيلة ويحرم السرقة داخلها ، لكنه يسمح لهم بسرقة المواشى من القبائل الأخرى .. »

- « ودوره العلاجى ؟ »

نظرت له حيث وقف فى الخلفية يوزع لعناته :

- « ليس كبيرًا .. الحجامة لآلام الرأس وخلع الأسنان .. هذه لابد أن تدفن فى الجهة الغربية من الكوخ ! »

قلت لها وأنا أتأمل الرجل :

- « يمكن أن يكون خطرًا .. »

- « ليس لهذا الحد .. الغريب فيما يتعلق بقبائل (كينيا) البدائية - مثل (ماساى) و(توركانا) - أن دور الساحر ليس جوهريًا أو ملزمًا .. يمكنهم تجاهله أحيانًا كما يقوم الغربيون بتجاهل رجل الدين أحيانًا .. وهذا - على ما أعتقد - السبب الوحيد الذى أبقانا أحياء .. »

ويبدو أنها كانت تعرف بالفعل ما تقول ، لأن الرجل تعب من كثرة الصياح والصراخ فابتعد .. وعاد القوم إلى مرحهم الأول كأنما غضبته فقرة من فقرات التسلية للأمسية ، وإن لم يسخر أحد أو يضحك ..

* * *

أمضيت يومين آخرين عند القبيلة ..

بالنسبة للشق العلاجى كان نشيطًا وشبه ناجح .. أما بالنسبة لشق الأسماك فلم أخرج بشىء .. محادثات لا تنتهى بين النرويجيين والزعيم .. واضح تمامًا أن رفضه بات للفكرة ..

إنهم حمقى .. محاولة تغيير الطريقة التى نشأ عليها (التوركانا) ومارسوها منذ آلاف السنين .. من عصر الإسكندر الأكبر لم يتغير شىء فى حياتهم ، والآن يطالبون بأن يتجهوا لتعليب الأسماك !

بين الدول الاستعمارية يتمتع البريطانيون بحاسة صائبة قلما تخطئ فى فهم الشعوب التى يحتلونها ، وقد كتب البريطانى (فيليب هيو) من خمسين عامًا : إن الماشية والرعى هما عصب الحياة بالنسبة لقبائل (توركانا) ، ومن المستحيل أن يتغير هذا ..

النرويجيون لا يملكـون نظرة البريطـانيين الثاقبـة ، لهذا يتصرفون بسذاجة لا مثيل لها ..

على أننى قابلت بريطانيًا آخر أشـهر من نـار علـى علم فى (كينيا) كلهـا .. إنـه (ريتشـارد ليكى Leakey) العالم الأنثروبولوجى الذى ولـد فى كينيـا ، وهـو الـذى أجـرى عام 1984 حفريات مهمة على ضفاف بحيرة (توركانا) فوجد هيكلاً عظميًا لصبى مراهق .. هذا الهيكل تبيـن بـالفحص الكربونى أن عمره يتجاوز مليونًا ونصف من الأعوام ، وقد اشتهر فى أوساط علم الأجناس باسم (صبى توركانا) .. مـن مليون عام ونصف جرى على هذه الأرض صبى يتحسس طريق الرجولة .. ربمـا أحب .. ربمـا حسب أنـه وقـع فى الحب .. ربما كان يتيه فخرًا بالعضلات الوليدة فى ذراعيـه وساقيه .. ثم مات لنجده نحن ...

وبعد هذا وجد (ليكى) جزءًا من فك يعود عمره إلى 17 مليـونًا من الأعوام .. وقد افتتح الرجل معهدًا لدراسات ما قبل التـاريخ فى إفريقيا .. ثم صار مديرًا لمتحف التاريخ الطبيعى فى كينيا ..

كان (ليكى) يزور المنطقة فى مهمة لم أعرف كنههـا .. وقد تبادلنـا بضـع عبـارات مجاملـة ، وأيقنـت أن الأهـالى يعرفونه ويحملون له تقديرًا كبيرًا .. لكن تقديرهم لم يبلغ

تقدير (مارجريت) له .. لم تنطق بحرف .. فقط هرعت تلقـاه وهى ترتجف ، حتى حسبتها ستقدم له القرابين بعـد دقـائق .. وراحت ترشف كلماته شربًا .. قالت إنها قابلته عدة مرات فى مؤتمرات وفى (كينيا) لكنها لم تقترب منه قط إلى هذا الحد ..

كان ما قاله مهمًا بحق :

ـ « هذه القبيلة قديمة للغاية ! »

ثم ركب طائرته ورحل ...

هكذا ! ببساطة قدم لنا حقيقة أخرى من حقائق الحياة ، وهو ما خيب أملى أنا الذى توقعت أن تخرج قطوف الحكمة من فمـه إذا تكلم ..

وقفت (مارجريت) ترقب طائرته تبتعد كأنه فتى أحلامها يغيب وراء الأفق .. قلت لهـا شيئًا لـم تتبينـه فعدت أكرره بصوت مسموع :

ـ « حان موعد رحيلى أنا الآخر .. فلم يعد لدى دور هنا .. »

* * *

6- إنهم مخابيل ..

عزيزى علاء :

حدثتك فى الرسالة السابقة عن رغبتى فى العودة إلى وحدة (سافارى) ، وهذا ما فعلته .. الحقيقة أننى بدأت أندمج فى عالم (توركانا) واستخفتنى نشوة كنشوات الشباب .. روح المغامرة التى نسيتها طويلاً تحركت داخلى ، مع ذلك الانجذاب الغريب غير المفهوم نحو (مارجريت جيرهادسن) .. إلا أننى فى النهاية تذكرت من أنا وما هى مسئولياتى الحقيقية ..

لهذا عدت لأتسلم زمام الأمور فى وحدة (سافارى) ، واندمجت فى المشاكل الإدارية والطبية المعتادة .. وببطء عدت أنا أنا ..

نسيت كل شىء عن النرويجيين ، لكنى كنت أتلقى من حين لآخر تقريرًا من أطبائنا هناك - وقد صاروا خمسة - أو تهبط طائرة الهليوكوبتر حاملة حالة أخرى من الكزاز أو الحويصلات المائية ..

لقد عادت تلك الزوجة لزوجها الفخور كى يسدد لبطنها ركلة أخرى متى أراد ..

وفى لحظات الفراغ من العمل كنت أمد يدى فى الدرج لأخرج تلك الصور التى التقطتها (مارجريت) أو التقطها (كيسلن) للمجموعة .. إنهما مخولان بالتقاط الصور متى شاءا لأن الأهالى يثقون فيهما .. طبعًا كنت أنتقى الصور التى تظهر (مارجريت) لأتأملها بعناية .. باسلة قوية تعرف كل شىء .. مشمرة الكمين تجلس على الأرض أو على جمجمة بقرة ، وتتفحص طفلاً قذرًا عاريًا بلا ذرة اشمئزاز .. تقف وسط مجموعة من النسوة وتضحك من الأعماق ، والنسوة يضحكن كأنما هى دعابة مشتركة .. تشرح لى على خارطة ، وأنا أبدو كئيبًا هشًا مثيرًا للشفقة ..

كنت أراقب هذه الصور وأتنهد ..

اصبر يا صاحبى .. اصبر .. سرعان ما يعود هؤلاء القوم لعالمهم البارد جوار وحوش بحر الشمال .. وسوف تنتهى هذه الزوبعة من حياتك .. لن يعرف أحد أنها حدثت .. مهما كان عنف الدوامات فى داخلك فإن شيئًا لم يظهر على السطح .. وهذا عزاء كاف لك ..

* * *

ذات صباح هبطت طائرة الهليوكوبتر حاملة (كولفارد) رئيس الفريق ومعه (كيسلن) و(يوناس لى) .. الثانى والثالث خبيران فى الصيد لم تسنح الفرصة لأتكلم عنهما بالتفصيل ..

استقبلت ثلاثة الرجال فى مكتبى ، وكان من الواضح أنهم مرهقون جداً .. صارت لهم رائحة لا تختلف عن روائح (التوركانا) ، وقد أصيبت سكرتيراتى العيدات بالذهول .. طلبت لهم بعض الطعام والمشروبات الباردة فقط خطر لى أنهم فى حاجة لذلك ..

جلسوا يشربون ، وخطر لى أن أقترح عليهم أخذ حمام لكنى وجدت أن فى هذا لوناً من الوقاحة ..

سألت (تريجى كولفارد) عن أخبار العمل هناك ، فهزّ رأسه أنه لا بأس .. لا بأس .. لكنى كنت أعرف أن هناك كل بأس .. هذه القبيلة لن تتجه لتعليب الأسماك حتى لو أخبرتهم أن هذا آخر مصدر رزق فى العالم .. ثم إن هذه القبيلة مولعة بالترحال .. لن تستطيع أبدًا إقناع أهلها بالحياة فى موضع واحد ..

- « وكيف حال الدكتورة (جيرهادسن) ؟ »

وجهت السؤال وأنا لا أرفع نظرى عن مكتبى .. لسان حالى يقول : لا .. أنا لا أشعر بميل نحو هذه المرأة ، حتى لو بدا هذا على ملامحى ..

تبادل النظرات مع الجالسين ، ثم هزّ رأسه :

- « بخير .. بخير .. »

هنا تدخل الشاب (يوناس لى) وهو شاب له شعر أحمر يتدلى على كتفيه ، وقال :

- « الحقيقة أننا نريد رأيك .. »

- « فى أى شىء ؟ أنتم تعرفون ما تقومون به .. »

لكنهم كانوا مرتبكين فعلاً .. وخطر لى أن أتركهم وشأنهم الآن .. هناك مشكلة خطرة ولسوف أعرفها لكن فيما بعد .. ما يعنينى فى الأمر أنها لم تمت .. لو ماتت لعرفت هذا ..

وهكذا طلبت منهم الانصراف والاستراحة قليلاً .. اتصلت بالسكرتيرة وطلبت منها أن ترتب إقامتهم فى مسكن الأطباء هذه الليلة ، وعدت أمارس أعمالى ..

قرب المساء اقتحم طبيب نيوزيلندى مكتبى برغم احتجاج السكرتيرة .. إنه من الأشخاص (حارى الدماغ) الذين يتشاجرون ثم يعرفون لماذا هم غاضبون ..

بوجه أحمر محتقن اتجه لمكتبى ، وصاح :

- « سيدى .. أنت تعرفنى وتعرف أننى لا أتحمل الظلم بأنواعه .. »

قلت فى هدوء :

- « أنا متأكد من هذه النقطة .. »

- « إذن ما رأيك فى أننى أنهيت عملى فى عنبر الحروق .. أنت تعرف عنبر الحروق .. لقد قضيت أسود ساعات يومى ، وبعد هذا تناولت بعض الطعام الردىء .. واتجهت لغرفتى .. هل تعرف ما وجدته فى فراشى ؟ وجدت ثورًا نرويجيًا يغط فى نومه ! حاولت إيقاظه فلم يصح .. خرجت ورحت أبحث عن المسئول عن هذا ، فقيل لى إنه ضيف نرويجى لابد أن أحسن استقباله .. من قال هذا ؟ بعد كل معاناتى وعذابى أجد نرويجيًا ينام فى فراشى .. لو كان على أن أستقبل كل النرويجيين ناقصى المأوى فى حجرتى لكانت هذه نهاية العالم .. »

بالفعل اختار النرويجى أسوأ فراش فى العالم لينام فيه ، ومن حسن حظه أنه ثقيل النوم وإلا لسمع ما لا يحسن سماعه ..

قلت له وأنا أتنهد :

- « د. (كيفين) .. هل تستطيع إيقاظ الرجل ؟ »

- « بالطبع لا .. »

- « ونحن كذلك .. إذن لماذا لا تختار فراشًا آخر ؟ هؤلاء القوم سيرحلون فى الصباح .. وهم ليسوا مجذومين أو مصابين بالدرن .. كل ما أريده بعض المرونة .. »

- « ولماذا تقع مسئولية المرونة على عاتقى ؟ »

- « لأن غير المرن ينكسر بسهولة .. هذا هو ما ستدركه حين تبلغ سنى .. »

وطلبت من السكرتيرة أن تستدعى (جوتييه) مساعدى كى يحل هذه المشكلة .. لو كان على أن أرتب مكان نوم كل واحد فى هذه الوحدة لكان على أن أنتحر الآن فورًا ...

قبل أن يخرج النيوزيلندى قال لى وهو يشير نحوى بإصبع يمكن أن يكون مهددًا :

- « دعنى أخبرك يا سيدى .. إن الدبلوماسية لا تمثل شيئًا بالنسبة لى حتى لو أفسدت علاقات (نيوزيلندا) مع (النرويج) و (فرنسا) إذا تطلب الأمر .. »

تجاهلته ورفعت سماعة الهاتف أتلقى مكالمة مهمة ..

بعد قليل دخل (كولفارد) مكتبى ..

كان مرهقًا منكوش الشعر منتفخ الجفنين .. وأدركت ما لم يقله :

- « أنتم تعاملون الضيوف بطريقة غريبة هنا ! »

ضحكت فى سرى وقد تخيلت المشهد .. إذن لم يختر الثور النرويجى إلا فراش الخرتيت النيوزيلندى لينام فيه .. والنيوزيلندى

لم يجد إلا قائد الفريق كي يتحرش به .. لا بد أن الأمر كان أسطورياً كصراع الديناصور الذى نراه فى السينما ..

- « إنه غير مرن ! »

- « غير مرن على الإطلاق .. لو أردت رأيى .. »

استرخى فى جلسته وأشعل لفافة تبغ ثم تثاءب ..

- « هلا طلبت لى قهوة ؟ »

فعلت كما طلب ، وبدا لى أنه مثقل بشيء يريد قوله لكنه لا يعرف كيف يبدأ .. وأدركت أنه سيقوله الآن ما دام النوم لم يعد فى برنامجه ..

فى النهاية قال كلمته كأنما هو يريد الخلاص من عبء ثقيل :

- « الأستاذة (جيرهادسن) .. »

- « مالها ؟ »

- « راغبة فى الزواج .. »

بدا لى الأمر غريباً .. لقد كبرت على سن تلقى الصدمات العاطفية ، لهذا رحت أصغى له فى برود كأننا نتكلم عن شخص آخر .. وقلت فى بلا مبالاة :

- « هذا من حقها على ما أظن .. »

قال فى كياسة :

- « لا اعتراض لدى أحد ، لكنها تريد الزواج من .. من ... »

وبدأت أفهم فاتسعت عيناى رعباً .. بينما هو يكمل جملته :

- « من الزعيم (كوباكو لاجا) ! »

★ ★ ★

7- لا تفعلى من فضلك ..

عزيزى علاء :

كان أول ماتجسد أمامى فى هذه اللحظة صورة (كوباكو لاجا) بسنه المتقدمة .. بحجمه الضخم .. بأسنانه المنزوعة .. بقطعة السلك فى رأسه المخصصة لطرد القمل .. بالعظمة فى شفته السفلى .. بالكيس المائى المتضخم فى بطنه ، والذى لن يزيله أبدًا لأنه يرمز لتميزه وسط قومه ..

مددت يدى إلى كوب الماء وجرعت بعضه ، ثم عدت أكرر السؤال :

- « تتزوج من ؟ »

- « الزعيم .. لقد سمعتنى .. »

- « والسبب ؟ »

هزّ رأسه ورشف رشفة من القهوة ، ثم قال ساهمًا :

- « لأنها تحبه .. هذا واضح .. »

هذه المرة صارت أمام عينى صورتها .. بالذات وهى تقف وسط النسوة الأفريقيات تنفجر ضاحكة ..

لماذا ؟ لماذا ؟

عدت أسأله :

- « ولم تحاولوا منعها ؟ »

- « حاولنا إقناعها بلا جدوى .. لكن ليس بوسعنا منعها فهى امرأة رشيدة حرة بالكامل فى تصرفاتها .. »

حككت رأسى ورفعت سماعة الهاتف ، ثم تبينت أننى نسيت من كنت سأطلب .. لهذا وضعتها ثانية ، ثم تذكرت أن هذا سيظهرنى بمظهر المرتبك .. لذا رفعتها من جديد وطلبت رقمًا لا وجود له .. وظللت دقيقة أصغى للضجة المختلطة عبر الأسلاك ..

بعد قليل وضعت السماعة وسألته :

- « وما دورى فى الموضوع ؟ »

- « خطر لنا أنك قد تستطيع أن تلعب دورًا فى إقناعها .. »

- « أنتم أدرى بمواطنيكم .. ولو كانت مخبولة فهذا ليس شأنى .. »

- « أعتقد أنها تحترمك بشدة .. »

رحت أفكر فى الأمر .. فيما بعد سأحزن قليلاً وأستوعب خسارتى .. أما الآن فالأمر غريب لكنه ليس جريمة .. هى حرة وبالغة وتعرف كيف تتخذ قراراتها .. لا يوجد ما يمكن عمله ..

لكن الرجل كان فى حال سيئة بالفعل ، حتى إننى رجحت أنه يحبها سرًا كما أفعل أنا .. طبعًا فيما بعد عرفت أن هذا كلام فارغ ، لكن حماسه وإحباطه كانا غريبين ..

كان لابد أن أقول له شيئًا ما ، لهذا قلت له :

- « الآن تكمل نومك فى فراش آخر .. وغدًا أرى ما يمكن عمله .. »

بعد انصرافه فتحت الدرج ورحت أتأمل صورتها ..

لماذا ؟ لماذا ؟

* * *

فى الصباح أجريت المكالمة التى خطرت ببالى وأنا فى فراشى ليلاً ..

جاء صوته عبر أسلاك الهاتف البعيدة يتساءل عمن هناك ..

- « د. (ليكى) .. أنا (سينوريه) رئيس وحدة (سافارى) .. »

عالم الأنثروبولوجى الأكبر هنالك يصغى إلى قصتى وهو

لا يعلق تقريبًا .. فقط يصدر همهمة بمعنى أنه يتابعنى .. فلما انتهيت من سرد القصة قال فى عدم اكتراث حقيقى :

- « لا أعرف عنها الكثير لكن هذا شأنها على ما أعتقد .. إنها لم تمنحك وعدًا بالزواج .. »

كنت أخشى أن يقول شيئًا كهذا فقلت بعصبية :

- « هل تقبل المبدأ ؟ »

- « ليست أول عالمة أنثروبولوجى تفعلها .. عالمات كثيرات فعلنها .. إنها رغبتهن فى أن يعشن التجربة من الداخل لا الخارج .. وفى كل مرة كانت النتيجة دراسة تستحق .. »

- « هذا الزواج نموذج فريد فى عدم التكافؤ الحضارى والثقافى والمادى والجمالى وكل شىء .. »

- « هذا هو ما يجعله تجربة فريدة تستحق الدراسة .. ترى ماذا يحدث للزيجات الخالية من التكافؤ الحضارى والثقافى والمادى والجمالى وكل شىء ؟ »

بدا لى موقفه ثابتًا .. كأنه اتخذ قراره من قبل ولن يتزحزح عنه ..

قلت له بصوت مبحوح :

- « إذن أنت لا تقترح شيئًا ؟ »

قال بهدوء :

- « أعتقد أنها تعرف جوانب الموضوع وقد اتخذت قرارها بعد ترو .. لكن لا أرى ما يمنع من أن تناقشها مرة أخيرة .. »

وانتهت المكالمة ، وجلست أفكر فى الأمر ..

أخيرًا قررت أن ألحق بالرجال العائدين إلى (توركانا) صباحًا ..

لابد أن أعرف سر قرارها الغريب هذا ..

لماذا ؟ لماذا ؟

* * *

هبطت الطائرة مبعثرة الرمال فى كل صوب .. وكان عدد من رجال (توركانا) يقفون يراقبون المشهد فى لامبالاة ..

ترجلت من الطائرة ومشيت وسطهم أوزع التحيات بملامح الوجه .. أخيرًا رأيت (مارجريت) تقف مع إحدى النساء وهى تجرب أن تلف شالاً أحمر فاقع اللون حول خصرها .. كانت ملامح الحياة عدة أسابيع فى هذه البيئة الصحراوية القاتلة قد بدت عليها .. صار لون بشرتها كسرطان البحر المسلوق مع الكثير من التجاعيد .. أما شعرها فصار كتلة ليفية لا تعرف كيف تفكها ..

قالت لى حين رأتنى :

- « مرحبًا .. »

شعرت بغصة فى حلقى ، وقلت لها :

- « أريد أن نتحدث على انفراد .. »

وهكذا اصطحبتها بعيدًا عن مجال السمع والنظر ، وأخيرًا قلت لها فى عصبية :

- « ما هذا الذى سمعته ؟ »

ضحكت كثيرًا ، وقالت :

- « أعتقد أننى خمنت الموضوع .. هؤلاء الصبية لا يصدقون أننى فتاة رشيدة حرة الاختيار .. »

فى اشمئزاز هتفت :

- « هل تتحملين الحياة مع هذا المخلوق ؟ إننى لا أطيق رؤيته بضع دقائق .. لو كنت تنوين التضحية بحياتك من أجل إضافة سطور جديدة إلى علم الأنثروبولوجى فأنا أنصحك ألا تفعلى .. »

هذه المرة صارت ملامحها أكثر جدية ، وقالت بإخلاص لا شك فيه :

- « سأكون صريحة معك .. بالنسبة لهؤلاء القوم أنا بشعة كسحلية .. نسخة أنثوية باهتة محروقة ، ولا أحسب أن فى شخصى من الصفات ما يروق لزعيم .. »

ثم انفجرت ضاحكة :

- « تصور ! هذه هى فرصتى الوحيدة فى الحياة كى أتزوج زعيمًا ! »

- « لا أجد هذا مسليًا .. »

- « بعيدًا عن المزاح الذى لا تجده أنت مسليًا ، أنا فتشت فى العالم المتحضر كله عن رجل حقيقى .. رجل بمعنى الكلمة .. رجل كما خلقه الله لم تتلفه الحضارة وتجعله مائعًا يقبل أنصاف الحلول .. رجل لا يخشى أن يقول لا ولا يخشى أن يقول نعم .. رجل لا يخشى أن يكون فظًا .. ينذر زوجته أنه سيضربها ثم يضربها .. »

صحت فى غيظ :

- « هل هذا ما يروقك فى الأمر ؟ إن جمعيات حقوق المرأة لن ترحب بما تقولين .. كل هذه الأعوام من التحضر تدمرينها أنت فى ثانية .. كأنك تتوقين إلى رجل الكهف الذى يحمل الهراوة ويجر امرأته من شعرها ؟ »

- « ولم لا ؟ لقد وهبه الله العضلات كى يفعل هذا ، ووهب المرأة الشعر الطويل كى يجرها أحدهم .. هل تعلم أن المرأة ذات الشعر القصير كانت منبوذة فى تلك المجتمعات ؟ »

ثم نظرت للأفق وقالت كأنها تحلم :

- « منذ مليون عام ونصف يعيش هنا على ضفاف البحيرة .. لم يتعاقد مع شركة تأمين ، ولم يصرف شيكًا فى مصرف ، ولم يقد سيارة ، ولم يقرأ صحيفة .. إنه الإنسان البكر الذى لم يتلوث .. لن تجد واحدًا مثله أبدًا .. أنا رأيت زنوجًا يرقصون الديسكو ، وشاهدت البدائيين فى (بابيو غينيا الجديدة Papua New Guinea) يحملون أقراص الكمبيوتر المدمجة .. الهنود الحمر يمثلون فى السينما .. الأستراليون البدائيون يعرضون بدائيتهم طمعًا فى مزيد من الجنيهات .. باختصار لقد تلوث العالم .. هذا هو الموضع الأخير .. المعقل الأخير الذى ظل يحتفظ ببدائيته الأولى .. وهذا الرجل يرمز لهذا الطهر الأولى .. لهذا أريد أن أتزوجه ! »

- « لقد ركل زوجته أمامنا .. وكاد يقتل أخرى .. »

- « هذا هو تعبيره البدائى عن الامتلاك والحب ! »

كنت أخنقها .. لم أر فى حياتى منطقًا معكوسًا كهذا .. الإنسان يكافح مئات السنين من أجل خطوة فى طريق الرقى والتحضر ، وهى تأتى لتعلن أن هذا كان فى طريق الهدم لا البناء ..

- « إذن أنت لا ترينا رجالاً ؟ »

هزت كتفها وقالت مراوغة :

- « كما أننى لا أعتبر نفسى امرأة .. الخوف كل الخوف ألا يقبل هو .. »

نظرت لها مفكرًا .. لو كانت تلعب لعبة ما فهى بارعة جدًا .. كنت سأحترمها لو قالت إنها راغبة فى دراسة هؤلاء القوم وإعداد دراسة فريدة عنهم ، وبعدها فليذهبوا إلى الجحيم .. لكنها تتحدث عن الحب ..

فى النهاية قلت لها وأنا أبتعد :

- « أتمنى لك التوفيق وإن كنت لا أعرف كيف .. »

صاحت وقد وجدت أننى أبتعد :

- « لحظة .. الأمر ليس بهذه البساطة .. لابد من أب لى ! »

- أب لى ؟ التفت لها فى حيرة .. ماذا تعنين بالضبط ؟

- « لا أستطيع أن أطلب منه الزواج .. لابد أن يقابل أبى ويتكلم معه .. هذه هى التقاليد والتقاليد هنا كحد السيف لا تهاون فيها .. »

- « إذن هاتى أباك .. »

- « لا أعرف عنه شيئًا .. إنه فى (أوسلو Oslo) وربما توفى على الأرجح .. هذا يحتم أن يلعب أحدكم هذا الدور ، فالزعيم سيصدق أى شىء ! »

كان الغيظ يكاد يطير صوابى ، لكنى تماسكت وقلت فى حزم :

- « عليك بـ (كولفارد) .. إنه قائد الفريق أى أنه الأب الروحى لكل منكم .. »

مطت شفتها السفلى الملوثة بالنيكوتين وقالت فى إحباط :

- « إنه يأبى .. ما من واحد بين النرويجيين يقبل هذا الدور .. »

ثم قالت فى شرود وهى تخرج لفافة تبغ من علبتها :

- « لن أفهمهم أبدًا .. حسبت أننى أردت شيئًا هو من صميم اختصاصى .. »

- « هم كذلك أحرار .. »

نظرت لى فى ثبات بعينيها الزرقاوين الرماديتين وقالت :

- « وماذا عنك أنت ؟ »

* * *

8ـ زفاف حبيبتى ..

عزيزى علاء :

كما تعرف يا (علاء) أنا لست من الطراز الذى يظهر عواطفه بسهولة .. لكن سخرية الموقف لاتخفى على أحد .. حاولت التملص لكنها أصرت على أننى السبيل الوحيد لتحقيق سعادتها ..

ـ « أنا لا أرى فى الموضوع سبيلاً لسعادتك من أى نوع .. »

ـ « هذا يقع على كاهلى .. »

ـ « افترضى أننى رفضت .. »

ـ « لن تفعل .. ولماذا ترفض ؟ »

أنت تعرف هذا الشعور الدرامى الذى يدفع المرء لارتكاب أعمال عجيبة لا يقبلها فى ظروف عادية .. لعلها تلك الرغبة الماسوشية فى عقاب الذات .. فى الوصول بهذا الموقف الساخر إلى أقصى درجة له .. نفس النزعة الدرامية التى كانت تدفع المحكوم عليهم بالإعدام فى إنجلترا إلى أن يقدموا البقشيش للجلاد ..

لماذا لا نتركها تعيش هذه التجربة ؟ إن الأيام لخير معلم ..

وافقت على مضض ، وإن أفهمتها أنى لا أعرف شيئًا عن الدور المطلوب ..

ـ « سأشرح لك كل شىء .. فأنا صرت أتكلم لغتهم جيدًا .. »

★ ★ ★

لما صارحت النرويجيين بذلك ضربوا كفًا بكف ، وهتف (كيسلن) مغضبًا :

ـ « أنت جننت ! لقد طلبنا منك العون لكنك جئت تزيد من متاعبنا ! »

قلت له فى صبر حيث جلسنا هنالك خلف جمل يبرك على الرمال ، ويجتر طعامه فى تراخ :

ـ « اسمع يا صديقى .. مواطنتكم هى المخبولة لا أنا .. لقد استبدت بها غريزة الاستشهاد من أجل العلم ، وكل هذه السخافات ، وهى تعتقد أنها تفعل أهم عمل قامت به فى حياتها .. ليست المشكلة مشكلتى .. لكن إن لم أقبل أنا ستجد من يقبل .. لا أستبعد أن تجىء بـ (ليكى) كى يقوم بهذا العمل .. أحسب أنه سيتحمس لهذا .. لهذا قررت أنه لا مانع من تقديم هذه الخدمة لها .. هبها مجاملة .. »

ـ « مجاملة أخيرة ! »

وفى اللحظة التالية وجدت نفسى على الأرض وذقنى تؤلمنى بعنف ..

من فعلها ؟ ليس الاستنتاج صعبًا .. إنه ذلك الصوت (أوسكار سفيردراب) .. ذلك الذى لم يفتح عليه الله بكلمة واحدة منذ بدأت الحملة ، لكنه الآن قرر أن يبدأ بالفعل .. هو ذا يقف أمامى مكورًا قبضته وعيناه الزرقاوان ينبعث منهما الشرر ، وقد انتثر الشعر الأشقر حول رأسه فبدا كأسد .. أسد نرويجى غاضب يريد الفتك بى ..

أسرع (كولفارد) والباقون يحيطون بهذا المجنون ، على حين جلست فى مكانى لاهثًا ..

قلت وأنا أمسح ذقنى :

- « أنتم معشر النرويجيين تحيروننى .. حسبت بلادكم معقل الحرية الشخصية .. أنتم تتصرفون كأسرة فى ريف (إيطاليا) تدافع عن شرف ابنتها .. »

ثم رأيت عينيه من جديد ففهمت ..

لم أكن الوحيد الذى يحبها إذن ..

قال (كولفارد) وهو يساعدنى على النهوض وينفض الرمال عن ثيابى :

- « معذرة لحمق صديقنا .. أنت تفهم .. أرجو أن تنسى هذا الموقف تمامًا .. »

وقال (كيسلن) :

- « أنت لن تكتب هذا فى أى تقرير .. هه ؟ »

هززت رأسى ولم أقل شيئًا ..

ابتعدت ..

كنت أتجه إلى كوخ الزعيم ...

* * *

عند المساء جلست فى الخيمة التى منحوها لـ (مارجريت) .. كانت جالسة متوترة لكنها لا تكف عن التقاط الصور الفوتوغرافية .. المشهد كله مثير للسخرية ، لهذا استمتعت به إلى أقصى حد .. إن من قرأ (فولتير Voltaire) فى سن العاشرة مثلى ، لابد من أن يستمتع بما فى الموقف من سخرية .. أجمل السخرية وأقواها هى التى نسخر فيها من أنفسنا ..

من بعيد أرى حشدًا من رجال (توركانا) يتقدمهم (كوباكو لاجا) الرهيب .. يبعثرون الرمال من حولهم .. لقد قبل (كوباكو لاجا) أن يتنازل ويطلب يد ابنتى منى ..

وصل إلى الكوخ وسط أضواء الفلاش ، فوقف قليلاً ينظر لى ثم لعروسه المرتقبة .. ثم قال شيئًا ما بصوته الغليظ ..

– « يقول إنه يريد استعارة ثورك .. »

قالتها (مارجريت) بصوت خافت من خلفى .. ثم أردفت :

– « الثور هو أنا طبعًا .. »

– « مفهوم مفهوم .. »

ونظرت لوجه الرجل الكالح الصلب ، وقلت :

– « موافق .. لكنه ما زال صغيرًا .. »

نقلت له (مارجريت) ما قلت ، فهز الزعيم رأسه فى رضا واستدار مبتعدًا ..

استدرت إلى (مارجريت) متسائلاً :

– « هل هذا كل شىء ؟ »

– « لا .. هذه هى الموافقة المبدئية .. سوف يذهب ليتزين ويعود غدًا .. »

عدت أنظر لها وتساءلت فى حيرة :

– « بعد كل أعوام التقدم هذه تفخرين بأن يعتبرك أحدهم ثورًا ! »

ضحكت وقالت :

– « لا توجد ضغائن شخصية هنا .. هذه هى التقاليد .. لابد من هذه المحادثة .. »

– « سيكون رائعًا .. »

– « ما هو ؟ »

– « كتابك عن طقوس الزواج عند الـ (توركانا) .. »

صاحت محتجة ، وهى تركل الرمال فى وجهى :

– « كف عن السخف .. ما زلت مصرًا على أننى أفعل هذا كله من أجل كتاب ؟ قلت لك إننى أفعل هذا لأننى أريده ! »

بدت لى فاتنة فى هذه اللحظة ، وخطر لى إنه كان خيرًا لى ولو ولدت زعيمًا فى (توركانا) ألبس جلد الأبقار وأغرس قطعة سلك فى رأسى .. أحيانًا تكتشف أن هذا خير لك من إدارة وحدة (سافارى) الكئيبة ..

ومن بعيد رأيته .. كان قادمًا نحونا ..

من ؟ (لوكيريو) الساحر طبعًا .. وليس وحده .. إنه يحمل قربة من الجلد مليئة بشىء لا أفهمه ..

كان قد تأكد من رحيل الزعيم .. هكذا اتجه نحو خيمتنا بخطا ثابتة ، ووقف ينظر لى فى ثبات ..

كنت دومًا أشعر باشمئزاز من هؤلاء القوم حتى لو لم يعادونى بالذات .. من هو ساحر القبيلة ؟ إنه مدع لا يجيد الصيد ولا يجيد حلب الأبقار وليس قويًا ليدافع عن القبيلة .. لم يغرس غرسة وليس له رحم لينجب الأطفال ، ولا يستطيع تشييد خيمة .. ما هو دوره فى الحياة إذن ؟ لا دور ولو أنصفنا لتخلصنا منه فى أقرب مستنقع .. لكنه يعرف كيف يعوض هذا كله بالمزيد من النصب .. يلبس أغرب الثياب ويقول أغرب الكلام .. إنه خبير بالآلهة والمفضل عندها .. إنه يعرف كيف تفكر وماذا تريد .. هكذا ينال الاحترام والمهابة ويكسب ويأكل أفضل من كل الكادحين من حوله .. إنه لا يساوى قلامة ظفرهم لكنه ينال كل شىء .. هذه هى اللعبة منذ كان كهنة (آمون) يأخذون القرابين من الفلاحين البائسين ، ثم يدخلون قدس الأقداس ليجلسوا مع الإله .. بينما هم فى الحقيقة يريدون التهام كل هذا البط والجبن والبصل .. بعد هذا يخرجون ليقولوا للناس إن (آمون) راض .. إنهم خبراء يعرفون متى تزوج (آمون) ومتى أنجبت (إيزيس) .. كل هذا و(آمون) لا وجود له أصلاً ..

كنت غارقًا فى هذه الخواطر وأنا أتوقع رد فعل عدائيًا من ذلك الرجل المقيت ..

توقعت أن يبصق على ويبعثر الرمال فى وجهى .. الحقيقة أنه فعل شيئًا من هذا لكن على نطاق أوسع .. لقد قذف محتويات القربة على وجهى ، وعندها أدركت أننى ملوث بالدماء .. وأن (مارجريت) ليست أفضل حالاً ..

الوغد قد ملأ القربة بدم حيوان مذبوح .. ويبدو أن هذه من علامات اللعنة هنا ..

- « يا لك من مقرف !! »

قلتها ونهضت غاضبًا .. بينما ولى هو الأدبار وهو يحرك قدميه العاريتين حركات راقصة معينة ..

نهضت عازمًا على الفتك به خاصة وهو لا يتفوق على فى الحجم ، لكن (مارجريت) صاحت وهى تبصق على الرمال :

- « دعه ! تفو ! أنت لا تقدر مسئولية الاعتداء على رجل مقدس كهذا ! »

- « قلت لى إنه ليس مطلق السلطة .. »

ـ « ليس إلى درجة ضربه .. إنه مغتاظ لأن كل تحذيراته من المرأة البيضاء الخبيثة لم تلق أذنًا صاغية .. دعه يفعل ما يشاء .. »

★ ★ ★

جاء المساء التالى ، وفى هذه المرة دوت أصوات الغناء من حناجر الرجال والنساء .. غناء بدائى جدًا لا يشبه تلك الأصوات الرخيمة التى تسمعها فى (سيراليون) و (الكاميرون) وأرض (الزولو) ..

ومن بعيد رأيت (العريس) قادمًا ..

كان قد فرد قامته وارتدى أسمالاً حمراء فاقعًا لونها ..

أغمض عينًا واحدة كعادته حينما يحب أن ينظر بتركيز ، وعلى وجهه رسم علامات الاشمئزاز والتأفف كأنما هو تنازل بقبول الزواج من ابنتى .. هو شىء لا يريده الوغد لكنه طلب منه بإلحاح ..

نسيت أن أقول إنه فى ذروة أناقته .. ما من أمير دخل قصر (فرساى Versailles) أيام الملكية فى منظر أبهى من هذا .. ما من لورد بريطانى دخل كاتدرائية (وستمنستر Westminster)

بثياب أكثر إبهارًا .. لقد استحم بالطين بالكامل فغطى كل شىء فيه ، ثم نثر قشر بيض النعام على هذا الطين فصار يشبه سلحفاة فضائية ..

مغطى بالوحل الجاف والقشور اتجه نحونا ..

ثم وقف على بعد أمتار منى وألقى بشىء فى لفافة عند قدمى .. هذا تبغ .. لابد من الكثير منه لوالد العروس .. ثم إنه أشار للوراء ..

هنا رأيت النوق .. عددًا كبيرًا منها يقف فى الخلاء ..

قال (كولفارد) وهو يقترب منى :

ـ « هذه هديته لك ! اثنتا عشرة ناقة بالتمام لك ! أنت صرت ثريًا ! »

أصابنى الذهول فاستدرت أسأله :

ـ « هذا مهر العروس إذن ؟ »

ـ « بل اعتبره ثمنها ! »

ـ « لكن هذا سعر أقل من زوجته التى عالجتها .. »

ـ « لأن المرأة البيضاء لا تستحق كل ما دفعه فى زميلتها السوداء .. لاحظ أنه لم يتحمس لهذه الزيجة بل قبلها على سبيل المجاملة ! »

تخيلت نفسى عائدًا لوحدة (سافارى) على ظهر ناقة ومن خلفى قافلة من النوق .. وابتسمت فى سرى .. هذه هى المهن المربحة بحق ...

وفى اللحظة التالية كان الزعيم يجر (مارجريت) فى كثير من الغلظة نحو خيمته، بينما باقى القبيلة يهللون ويغنون .. واحتشدت حولها مجموعة من النساء رحن يصفقن ويصدرن أصواتًا غريبة من الحلق .. إنهن زوجات الزعيم الأخريات .. فهمت من (مارجريت) إنهن لن يحاربنها بل هن يرحبن بكل زوجة جديدة، لأن هذا يخفف عبء العمل الملقى على عاتقهن .. لقد كسبن يدًا عاملة جديدة .. الكل سعيد ما عدا الحمقى الأوروبيين ..

يبدو أن حفل الزفاف كان مختصرًا ..

وانحنيت على الأرض ألتقط التبغ .. ورحت أمضغه على سبيل المزيد من تعذيب النفس ..

لو أنها فقط انتقت قبيلة أقل بدائية .. لو أنها انتقت زوجًا يمكن أن أرى فيه مزية واحدة ...

ربت (كولفارد) على كتفى وقال :

- « لا تبتئس يا صاحبى .. لعلها ترشده إلى هجر الوثنية .. »

بصقت التبغ، وقلت بصوت مبحوح :

- « لا أعتقد .. أرجو ألا يقودها هو إلى الوثنية .. إنها معجبة به كما هو من دون قشرة الحضارة .. لا أعتقد أنها ستحاول تغيير شىء فى عالمه .. »

وهتف أحد النرويجيين :

- « هل تشاركنا حفل التأبين ؟ »

وقال آخر :

- « أنت صرت ثريًا .. ماذا ستفعل بكل هذه النوق ؟ »

قلت شارد الذهن :

- « سأهبها لأول راع هنا يقبل أن يعنى بها .. إن المرء مثقل بالمسئوليات فلن أضيف إليها قطعيًا من الإبل .. »

ونظرت للطائرة .. كنت أعرف أننى سأعود الليلة إلى (سافارى) .. هذه المرة لم يعد لى مكان هنا فعلاً ..

★ ★ ★

كالعادة دخلت فراشى وأغرقت أفكارى بين صفحات ديوان (أنا وأنت) للشاعر (بول جيرالدى Paul Geraldy) ..

الديوان الذى لم أكف عن قراءته من عشرين عامًا .. لم لا والشاعر نفسه قال إن نجاح هذا الديوان الوقح ظل يطارده أربعين عامًا ؟

- « آه لو تعرفين ما يدور فى نفسى هذه الليلة من طموح وكبرياء ورغبة وحنان .

ولكنك لن تستطيعى ..

آه .. أحبك .. أحبك ..

هل تسمعين ؟

مجنون بك .. إننى أنطق بذات الشىء فى كل مرة ..

تضحكين ؟؟؟ تقولين إننى غبى ؟

ماذا أصنع لتعرفى ما أقول ! فارغ ما أقول !

أريد أن أفصح أن أعبر .. أن أترجم .. أريدك تعرفين .. تعرفين ماذا ؟

إن الحب هو أنت .. أنت .. »

حقًا لا أعرف متى سقط الكتاب من يدى ولا متى نمت ..

لكنى حلمت .. حلمت كثيرًا جدًا بأستاذ فرنسى نحيل .. وحيدًا وسط الجليد ضل طريقه .. هناك شخص ما يتحرك من بعيد لكن بلوغه مستحيل ، ورؤية وجهه أكثر استحالة .. يحاول الأستاذ

أن يتماسك وألا تنزلق قدماه .. فى النهاية اتسع شرخ تحت قدمه وسقط وهو يصرخ ...

ككل أحلام السقوط صحوت قبل أن أبلغ الهاوية .. فوجدت الوسادة مبللة ...

★ ★ ★

9- تطورات ..

(طبعًا - بعد فترة - لم يعد (سينوريه) يتكلم عن هذه القصة، وانشغلت فى مشاكل أخرى من مشاكل (سافارى) التى تعرفونها، والتى سأحكيها فيما بعد، ومرت تحت جسر حياتى مياه كثيرة .. كانت خطاباته عادية تتحدث عن تأملاته فى الحياة ومشاكله فى الإدارة، إلى أن عاد بعد سبعة أشهر يتكلم من جديد عن تلك العالمة النرويجية .. »

عزيزى علاء : .

أنت تعرف أننى لم أر (مارجريت جيرهادسن) منذ تلك الليلة .. وأعتقد أننى نسيت وجودها فى العالم، وإن كان هذا بجهد عنيف قاومت به نفسى ..

أما عن فريق النرويجيين، فقد قضوا فى المنطقة أسبوعين آخرين، ثم عاد نصفهم حول ضفاف (توركانا)، وقدرت أنهم لم يقطنوا بعد من محاولة إحياء مشروع الأسماك ..

على أن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون شيئًا عن (مارجريت)، لأن القرية كلها ارتحلت كعادة (التوركانا) إلى مكان آخر صالح للرعى، بينما النرويجيون مستقرون قرب البحيرة ..

هناك أخبار أخرى سارة نوعًا هى أن تمساحًا من تماسيح (توركانا) التهم واحدًا من الفريق يدعى (جيرهارد سويفن) .. لقد قرر الفتى أنه (طرزان) وأن بوسعه السباحة فى بحيرة (توركانا) دون أن يعترض أحد .. أما التمساح فيبدو أنه حسبه ثورًا بريًا .. كان رأيى دائمًا أن تماسيح (كينيا) هذه لا تدقق فى اختيار طعامها ..

كل هذا كان يسير بالوتيرة المعتادة، لكن ما فجر اللغم الغارق من جديد هو تلك المكالمة التى جاءتنى ذات يوم فى وحدة (سافارى) .. خمن من المتكلم ؟ (ليكى) شخصيًا ...

سألنى عن أحوالى وأحوال الفريق .. ثم عن تلك العالمة النرويجية التى تزوجت ..

قلت له :

- « لا أعرف عنها شيئًا منذ حفل الزفاف .. »

قال ضاحكًا عبر أسلاك الهاتف .. حتى إنه كان بوسعى أن أرى حاجبيه يرتفعان وجبهته تتجعد :

- « إنها تحرز نجاحًا عظيمًا .. قرأت لها الكثير من الأبحاث عن (توركانا) فى مجلاتنا المتخصصة .. »

ابتلعت ريقى وسألت :

- « متى ؟ »

- « الأشهر الأخيرة ! إنها تنتج نحو بحثين كل ثلاثة أشهر ! »

شعرت بدهشة عارمة .. إذن هى تعمل ! فى أية ظروف وتحت أية ضغوط ؟ برغم هذا تجد الوقت لتكتب وترسل للمجلات ؟ ثم كيف ترسل ما تكتبه ؟

قال لى عبر الهاتف :

- « لا توجد مشكلة فى إرسال الأبحاث بخط يدها مع أى شخص متجه إلى العاصمة .. لكن المحير هنا أنها صارت لغزًا فى النرويج .. لا أحد يعرف أين هى فى (كينيا) بالضبط .. أنا وأنت نعرف وعدد محدود من الفريق .. زوجها يبحث عنها بجنون ! »

- « زوجها ؟ »

- « نعم .. هى لم تحصل على الطلاق بعد .. »

- « كذبت علينا إذن .. إن لها زوجين الآن ! »

- « هذا ما خطر لى .. يحسن لو لقيتها أن تنصحها بعدم العودة إلى وطنها قبل أن تسوى أمورها مع الزعيم .. »

وضعت سماعة الهاتف شاعرًا بحيرة عارمة .. إذن هى كذبت مرتين .. المرة الأولى حين زعمت أنها مطلقة .. المرة الثانية حين زعمت أن الحب هو سبب ارتباطها ولا علاقة لهذا بعلم الأنثروبولوجى ..

كنت أحمق حين منحتها ثقتى .. إنها تكذب طيلة الوقت على الجميع .. ولماذا تكذب ؟ لا أعرف .. لكن من قال إن (مارجريت جيرهادسن) امرأة بسيطة هينة الشأن ؟ إنها قوية إلى حد لا يوصف ويمكنها خداع الجميع ..

قلت لنفسى إن هذا لن يحدث فارقًا .. لن يتغير شىء فى القصة فأنا لن أراها ثانية ...

لكن كنت مخطئًا ..

* * *

- « هالو .. د. (سينوريه) .. أنا (ميكوس) .. »

كان هذا صوت صديقنا اليونانى يتصل بالوحدة .. وكان يتردد مع طاقم التمريض على قرى (توركانا) مرة أسبوعيًا بانتظام .. فنحن لم ننه المشروع ، وإن كان يرتاد جماعات مثل (لوكيتشوكيو) و(لوكيتشار) و(إليا) ولم يعد قط لجماعتنا الأولى ..

- « هالو (ميكوس) .. هات ما عندك .. »

- « لدى حالة يجب نقلها إلى الوحدة .. أقترح أن ترسلوا لنا الطائرة .. »

- « سأفعل .. ولكن ما هى المشكلة ؟ »

- « جرح نافذ فى جدار البطن .. إنها تلقت طعنة من (أماليتى) .. نوع من المدى الخاصة بهم .. »

- « سأرسل لك الطائرة .. »

وأصدرت تعليماتى لقائد الطائرة كى يتجه إلى المكان الذى حدده (ميكوس) ..

وبعد أقل من ساعة سمعت المحركات تهدر فى الفناء الخلفى للوحدة حيث تهبط الطائرة فى كل مرة ..

بعد ساعة من العمل قررت أن أتوجه إلى قسم الجراحة لأرى ما تم هناك ، فاصطدمت بالمحفة أثناء خروجها من غرفة الجراحة .. كانت فوقها امرأة من (التوركانا) مغطاة بالطين تقريبًا ، فلابد أنهم احتاجوا إلى جهد جهيد كى يزيلوا كل هذا الطين ويجدوا موضعًا يفتحون فيه .. الذى لا شك فيه هو أنها تعتبر من فاتنات (توركانا) وأكثر نسائها أناقة ..

من خلفها رأيت (شرودر) جراحنا الألمانى البارع .. كان ينزع ثيابه ويثرثر مع طبيب آخر جواره ..

- « لابد أنها كانت مهمة شاقة .. »

قال وهو يمشط شعره أمام مرآة كبيرة :

- « ليس إلى هذا الحد .. إن الجرح مرعب لكنه ليس خطيرًا ، وأعتقد أن فريق أطبائك هناك كان مذعورًا أكثر مما يقتضيه الأمر .. »

ثم اتجه إلى المرأة النائمة تحت الأغطية وصاح بصوت عال :

- « هلمى يا (مارجريت) ! لقد انتهت آلامك ! »

شهقت المرأة وسعلت ، ثم مدت يدها لتنزع أنبوب القصبة الهوائية الذى كان يتدلى من فمها .. وهى الطريقة التى يحبها أطباء التخدير : دع المريض ينزع الأنبوب بنفسه .. انتزعته وطوحت به جانبًا ثم راحت تكرع الهواء كرعًا ..

الآن أرى وجهها .. لشد ما تغيرت !

لقد أزالت شعرها بالكامل ونحل وجهها .. ثمة ممثلة سينما صلعاء مثلها لم أعد أذكر اسمها .. وكانت ترتدى ثياب هؤلاء القوم - (توركانا) لا الممثلة - بالضبط .. باختصار صارت منهم تمامًا فلم أتعرفها إلا حين سمعت اسمها ..

صحت فى دهشة :

ـ « (مارجريت) .. ولكن كيف حدث هذا ؟ »

نظرت لى بهاتين العينين الزجاجيتين اللتين لا تريان ؛ المميزتين لمن يفيقون من التخدير ، ولم تقل شيئًا فتطوع الجراح الألمانى بالإجابة :

ـ « طعنها أحدهم .. تقول إنها عالمة نرويجية تدعى (مارجريت جيرهادسن) .. لا أعرف كيف وماذا تفعل هناك ، لكننى أعرف هؤلاء العلماء .. كل شىء جائز .. »

ثم أضاف وهو يرتدى قميصه :

ـ « لو ارتفعت الطعنة قليلاً لفجرت حويصلة مائية تحت الحجاب الحاجز .. ولو هبطت قليلاً لمزقت الجنين ! »

جنين !

لم أعرف ما أقول فتركتهم يأخذونها إلى العنبر ، وعدت إلى مكتبى شارد الذهن .. حاولت تذكر شىء عن تلك الطبيبة الشقراء التى فتنتنى يومًا ما فلم أستطع .. كل ما رأيته على المحفة امرأة من (توركانا) قضت حياتها فى صنع السلال وحلب الأبقار ..

هكذا فتحت الدرج بحثًا عن الصور القديمة ، وشرعت أفحصها .. لشد ما نتغير ! من قال إن لنا وجوهًا وطباعًا ثابتة ؟ إننا كالشلال نتبدل فى كل ثانية ..

بعد ساعة أخرى اتجهت إلى عنبر الجراحة .. استقبلتنى ممرضة بريطانية حازمة تذكرك بمديرة مدرستك .. قالت لى فى عصبية :

ـ « هؤلاء القوم .. لماذا لا يستحمون مرة واحدة ؟ لقد فسدت الأغطية تمامًا .. كان المفروض ألا توضع فى الفراش قبل أن تأخذ حمامًا ! »

تخيلت رجلاً مطعونًا فى بطنه يرغم على أن يستحم قبل أن يسمح له بالرقاد فى فراش ، ولسبب ما لم ترق لى الفكرة ..

كانت هناك صورة أشعة لرئتيها معلقة جوار الفراش على مصباح صغير .. من الخطر أن تلتقط صور أشعة سينية لامرأة حامل لكن يبدو أنهم كانوا مجبرين .. أضف لهذا أنها ـ حتمًا ـ فى مراحل الحمل الأخيرة .. وفى صورة الأشعة رأيت بوضوح أن هناك حويصلة مائية فى الرئة اليسرى .. هذا هو مشهد (زهور السوسن فوق بحيرة) الشهير .. هذه الأشعة تعتبر بطاقة هوية .. شهادة جنسية تثبت أن (مارجريت) صارت تنتمى للتوركانا .. لقد نالت الخاتم الذى يميز هذه القبيلة عن سواها ..

فى صمت اتجهت إلى (مارجريت) التى كانت راقدة مفتوحة العينين ، وهناك خرطوم محاليل يتدلى إلى ذراعها .. لقد غسل أحدهم وجهها بعناية فبدأت ملامحها تعود إلى الوجود ..

وقفت جوارها بعض الوقت ثم قلت :

– « كيف حالك يا (مارجريت) ؟ »

سعلت قليلاً وبدا الألم على وجهها .. ثم قالت بصوت مبحوح :

– « إنه الساحر (لوكيريو) .. لمرة واحدة على الأقل كنت أنت محقًا .. »

– « لماذا فعل ذلك ؟ »

– « من البداية كان يكرهنى باعتبارى روح الشر فى هذا العالم .. ثم تفاقم الأمر حين شعر بتزايد سلطتى .. »

– « وماذا فعلوا به ؟ »

– « لا أعتقد أنهم سيؤذونه .. إن فقد الزوجة خسارة اقتصادية لا أكثر .. أما فقد ساحر القبيلة فكفر صريح .. خسارة روحية قد تقضى على القبيلة ذاتها .. أعتقد أنهم تركوه وشأنه .. »

ساد صمت طويل قطعته أنا بأن قلت وأنا أشير إلى الأشعة المعلقة :

– « لقد انضممت بجدارة إلى (توركانا) .. هناك حويصلات مائية فى كل سنتيمتر لعين من جسدك .. »

– « توقعت هذا .. إن حياتهم لاتستغنى عن الماشية والكلاب .. وطعامهم ملوث إلى حد كبير .. »

صعد الدم إلى رأسى ووددت لو صفعتها :

– « أنت تعرفين هذا كله .. ولم يتزحزح موقفك قط .. »

– « ولماذا يتزحزح ؟ كنت أعرف ما ينتظرنى .. »

أضفت فى ضيق وأنا أضبط معدل سريان السائل :

– « بالإضافة لهذا أنت حبلى .. والأهم أنك كذبت علينا مرتين .. أنت متزوجة .. وأوراقك العلمية تنهمر على المجلات .. لم يكن للحب دور فى قصتك هذه .. »

ساد صمت ثقيل .. وأعتقد أننى للمرة الأولى لمحت دمعتين فى عينيها ..

قالت دون أن تنظر لى :

– « أنت لاتعرف ما حققته هناك .. لقد قمنا بتدمير المشروع

النرويجى بالكامل .. أحرقنا ما تبقى من القوارب ! أغرقنا السفينة بالكامل واستولينا على أجزائها .. الثلاجات تم تفكيكها .. فى البدء كانوا يرتابون بى .. ولم يكن يفضلنى بشكل خاص ، ثم بدأ يتعلق بى بشدة .. لا أحسبه قادرًا على تركى يومًا .. »

وسعلت ..

هنا استبدت بى الحيرة وقلت :

ـ « هذا تناقض لا شك فيه .. أنت جئت مع ذات الفريق النرويجى الذى أراد تنمية مشروع الأسماك .. »

قالت وقد بدأ العرق ينبت على جبهتها :

ـ « جئت معهم بجسدى لكنى لست معهم بأفكارى .. إن النرويجيين يريدون تدمير ما بقى من هذا الشعب .. أما أنا فأريده كما هو .. أنت تعرف كيف .. كيف .. »

وبحثت عن تشبيه مناسب .. فى النهاية وجدت واحدًا :

ـ « تلك القردة فى السيرك التى يعلمونها تدخين الغليون وارتداء البذلة ، كى نضحك نحن ونشعر أن أموالنا لم تضع هباء .. كم تبدو سخيفة سمجة .. كم تبدو مبتذلة .. فى حين

يكون القرد فى أفضل وأروع حالاته حين تتركه يمارس حياته فوق الأشجار .. اتركوا (توركانا) كما خلقها الله .. كما كانت من مليون سنة .. لا تحولوهم إلى قردة تصطاد السمك كى تشعروا بالرضا .. »

وقفت ونظرت لها ثم قلت بحزم :

ـ « لن تعودى هناك .. »

ـ « لا أعرف كيف يمكنك منعى .. »

ـ « الخطر هناك دائم وحقيقى ومستمر .. »

ـ « هذا شأنى الخاص .. »

ـ « أنت هاربة من القانون .. يكفى أن أتصل بالسفارة النرويجية ولسوف نمرح كثيرًا .. »

ضحكت .. محاولة ألا يصدر منها صوت ، لكن الضحك غلبها ، فبدا الألم على وجهها وهى تشعر بأن الجرح يتمزق .. فلما انتهت النوبة قالت :

ـ « كيف تثبت شيئًا ؟ أنا فى عالم بلا أوراق .. لا توجد جهة مدنية واحدة أثبتت هذا الزواج فى أوراقها .. »

كانت أثناء ضحكها قد أزاحت الملاءة عن ساقها ، فرأيت ذلك الخلخال الذى تضعه نساء القبيلة كلهن .. ووسط الطين الكثيف حول كاحلها التقطت عينى منظر الكدمة ..

قلت لها وأنا أعيد الملاءة :

- « إنه يضربك كثيرًا .. »

- « طيلة اليوم ولأتفه سبب .. وما فى ذلك ؟ نحن فى الحياة مسئولون عن قراراتنا ، وأنا لم أر شيئًا لم أتوقعه .. »

ثم اعتدلت فى الفراش قليلاً وسألتنى عما إذا كان بوسعها أن تشرب ، فرفضت ..

بللت بلسانها شفتها الجافة ، وتأرجح رأسها قليلاً .. فهى لم تفق بعد من تأثير المخدر ..

قالت مغمضة العينين :

- « فى وطنى عرفت (سيجورد) .. المهندس الشاب الناجح .. كان يعيش فى عالم جليدى خاص به .. النجاح فى العمل هو الشىء الوحيد الذى يؤرقه ، وكان يتظاهر بأنه يفعل هذا من أجلى أنا .. لكنى كنت أعرف .. لو لم أكن فى حياته لفعل نفس الشىء .. وكم قلت له : لو كنت تفعل هذا من أجلى

فلا تفعله .. لكنه كان غارقًا فى هذا المجتمع الصناعى البارد السمج .. لكم تمنيت لو يتشاجر معى .. يصفعنى .. لم أره مرة واحدة مسرورًا حقًا أو غاضبًا حقًا .. وكنت أحلم .. أحلم بالأحراش الإفريقية .. بالتماسيح تتشاجر فى النهر .. بالخراتيت التى تهجم فجأة من خلف ستار الأشجار .. برقصات القبائل تحت ضوء القمر .. هناك يفرح الناس حقًا ويتألمون حقًا .. وهكذا بمجرد أن سمعت عن هذه الحملة التحقت بها ، ولم أسأله عن رأيه .. فقط حملت حقيبتى ورحلت .. »

ثم همست بصوت كالفحيح :

- « أنا لن أعود هناك إلا فى تابوت .. »

تهيأت لمغادرة الغرفة ، لكنها أحست بحركتى فقالت بعينين مغمضتين :

- « فقط أريد منك خدمة واحدة .. عالجنى من الحويصلات المائية ثم أعدنى إلى (توركانا) .. »

من الحكمة أن ننتظر حتى تضع وليدها قبل أن نعطيها علاجًا .. لكنى لم أرد عليها وابتعدت مطرق الرأس ...

* * *

10 ـ العودة إلى البيت ..

عزيزى علاء :

لم أحاول أن أراها ثانية ، وإن أصدرت تعليماتى بأن تعيدها الطائرة إلى حيث جاءت بمجرد شفائها ..

لقد أحببتها كثيرًا من ثم برد حبى لها سريعًا .. وتذكرت كلمة (أوسكار وايلد Wilde) : ثمة شيء ما مبتذل فى عواطف الذين كف المرء عن حبهم .. لهذا لم أعد على استعداد لأى تعاطف معها من أى نوع ، وتمنيت أن يحطم رجال (توركانا) رأسها أو يطعموها لتماسيح بحيرتهم ..

★ ★ ★

ـ « أعتقد أننى خمنت الموضوع .. هؤلاء الصبية لا يصدقون أننى فتاة رشيدة حرة الاختيار .. »

ـ « لن أفهمهم أبدًا .. حسبت أننى أردت شيئًا هو من صُميم اختصاصى .. »

ـ « هذا شأنى الخاص .. »

ـ « ولماذا يتزحزح ؟ كنت أعرف ما ينتظرنى .. »

★ ★ ★

هذه كانت دومًا ردودها فى كل ما يتعلق بها ، فنغدو نحن مجموعة من الأوغاد الذين يحاولون فرض إرادتهم عليها .. دعها تذق ثمن اختياراتها .. دعها تعان قليلاً ..

وانشغلت تمامًا فى مشاكل (سافارى) المعتادة .. جاءتنا بعض وفود من منظمة الصحة العالمية ، وتفشى وباء نزفى غريب استغرق وقتًا فى حصاره .. وسافرت أسبوعًا إلى النمسا بناءً على استدعاء من الإدارة .. وهو شيء خطر لكن اتضح أن الأمر يتعلق بتنظيم جديد للمعاملات المالية للوحدة ..

لدى عودتى وجدت فى الوحدة (كولفادر) ـ هل تذكره ؟ ـ ومعه وجه نرويجى جديد هو د. (جيرار سمولدن) .. إنه خبير فى خواص التربة وقد جاء يواصل الدراسات التى قام بها من سبقوه ..

قلت لـ (كولفارد) فى تهكم :

ـ « لا أحسب أن لديكم ما تبحثون عنه الآن .. لقد دمر رجال (توركانا) كل ما يخص مشروع (نوراد) .. »

لم ينفعل ولم يغضب .. فقط قال فى نوع من الإحباط :

ـ « هذا هو ما جئنا نناقشه .. إن الدكتور (سمولدن) قد درس التربة هناك جيدًا .. »

كان (سمولدن) رجلاً أصلع قصير القامة يمكنك بالفعل أن تعرف فى أى شارع أنه خبير تربة .. لم ألق أحدهم من قبل لكنى عرفته حين رأيته .. وكان من الطراز الذى تعلم كيف يتكلم بهدوء ولهجة آمرة بسبب عقد سببها له قصر قامته فى المدرسة قديمًا .. هل تعرف هذا الطراز ؟

قال (سمولدن) بلهجته الرزينة أكثر من اللازم :

- « الحقيقة أن كل شىء يدل على أن الرعى يحسن خواص التربة هنا .. لقد انطلقنا من موقف خاطئ هو أن الرعى يفسد التربة .. لا صحة لهذا .. بعكس أكثر النظريات العلمية نجد أن الأراضى التى رعت فيها ماشية (توركانا) استعادت صحتها .. ولقد حاولنا أن نجعلهم ينقلون مواشيهم إلى مزارع خاصة .. لكن حين جاء الجفاف وجدنا أن هذه المزارع لم تعد موجودة لتشكل احتياطيًا .. هكذا أدت هذه الفكرة إلى موت أعداد كبيرة من الماشية .. »

لم أفهم ما يقول فعدت استوثق مما فهمت :

- « تريد القول إن ما تفعله (توركانا) هو الشىء الصحيح ؟ »

- « نعم .. »

- « وأن المشروع لا قيمة له ؟ »

- « نعم .. كانت حسابات خاطئة ، وقد أدركنا أن الطبيعة تعرف ما تفعل .. دع هؤلاء الرعاة يمارسون ما كانوا يمارسونه من مليون سنة .. »

تنهدت ارتياحًا .. لقد وصلوا بعد كل هذا العناء إلى النتيجة التى توصلت لها فى مكتبى ..

قلت لـ (كولفارد) وأنا أفرك يدى :

- « معنى هذا أن رجالكم هناك سيرحلون .. »

- « هذا ما انتويناه .. »

- « والتبرع سيصل وحدة (سافارى) لأنها قامت بما كلفت به بالضبط .. »

- « لم نعتد التراجع فى وعودنا .. »

فكرت قليلاً ثم قلت :

- « طبعًا سيعود الفريق ناقصًا اثنين .. رجلكم الذى التهمته التماسيح وعالمتكم التى تزوجت .. »

هزّ رأسه فى حزن أن نعم ..

وهكذا صار بوسعى أن أستعيد فريق العمل الذى كلفته بالزيارة

الأسبوعية لبحيرة (توركانا) .. وقررت أن الوقت قد حان لركوب الهليوكوبتر وتفقد المنطقة مرة أخيرة ..

★ ★ ★

من جديد راحت الطائرة تهتز وهى تبعثر الرمال فى كل صوب .. تصايح أطفال ونبحت كلاب لكن الانطباع العام كان باردًا كالعادة ، فالـ (توركانا) كما قلت يمقتون الغرباء ..

ترجلت وأنا أحنى رأسى كى لاتدفعنى تيار الهواء لأسقط .. وحين فتحت عينى رأيت عددًا من رجالى ورجالهم .. كانوا يقفون هناك بانتظار توقف محرك الطائرة كى يفتحوا عيونهم أيضًا ..

تبًا لوجوهكم الكالحة ! وجوه (توركانا) التى دبغتها الصحراء ، ووجوه رجالى الذين لم يعودوا أفضل حالاً ...

حرارة الجو شنيعة يصعب أن تصدقها .. ومن بعيد تترجرج الموجودات فى تيار الهواء الساخن المتصاعد فتشعر كأن هناك نهرًا فوق مستوى الأرض ..

ستكون هذه آخر مرة ، ولسوف أنعم بها ..

قلت لرجال (سافارى) :

ـ « لقد انتهت معاناتكم يا شباب .. إن النرويجيين أعلنوا أنهم حمقى .. لقد قمنا بما استطعنا .. »

قال لى د. (ميكوس) الذى صيرته الشمس زنجيًا تمامًا ما عدا بعض خصلات الشعر الأحمر :

ـ « ثمة مشكلة صغيرة يا سيدى .. العالمة النرويجية .. »

ـ « هل هى هنا ؟ »

ـ « جلبوها أمس .. أنت تعرف أن القبيلة لاتستقر فى مكان .. حدود قراهم تتغير كالشلال فى كل لحظة .. لكنهم استقروا هنا منذ يومين .. »

ـ « تقول إن هناك مشكلة ؟ »

ـ « لقد وضعت مولودها من أسبوعين .. لكنها ليست على ما يرام .. »

قالت ممرضة من (سافارى) وهى ترتجف :

ـ « لقد رأيت عملية وضع سابقة هنا .. أسلوب غير إنسانى .. يقطعون الحبل السرى بالأسنان ، ويستخدمون روث الماشية بكثرة ! »

ـ « روث ماشية ؟! »

ودون كلمة أخرى مشيت وراءهم .. إننى أتوقع الأسوأ .. طبعًا توقعت أن يقولوا إنها ماتت ، لكنها لم تمت ومعنى هذا كارثة أخرى ..

كانت هناك هضبة صغيرة ثبتت تحتها مجموعة من جلود الماشية على شكل خيمة ، وجوار الخيمة كانت هناك عجوز (قهرمانة) تقف على ساق واحدة تراقبنا .. أعتقد أنها مولدة القبيلة .. ثمة ماعز تتحسس جلود الخيمة بأنفها وطفل يلعب فوق الرمال ..

أزحت أستار الخيمة ودخلت ..

كان الجو ظليلاً بالداخل .. وعلى الرمال - دون أية حشية - كانت (مارجريت) راقدة .. لشد ما تغيرت ! تغيرت حتى عن آخر مرة لاقيتها فيها .. ذلك الشحوب وكل هذه القذارة .. لا يوجد فيها شيء حى إلا عيناها الزرقاوان الرماديتان .. وكانت ترمقنى وهى راقدة وخيل إلى أن شبح ابتسامة تلاعب هناك ..

كان رأسها يستند إلى حقيبة من البلاستيك ، ورأيت طرفاً من محتوى الحقيبة .. إنها مليئة بأوراق خطت باليد ..

قلت لها وأنا أركع على الرمال جوارها :

- « كيف حالك يا (مارجريت) ؟ »

لم تنطق وإن تحركت شفتاها قليلاً ..

دنوت منها أكثر وتحسست ذراعها النحيلة .. وعدت أسألها :

- « بم تشعرين ؟ »

لم تنطق بحرف .. وإن ظلت عيناها تنظران لى طيلة الوقت ..

مددت يدى وتحسست فكها ، ثم بحثت فى جيبى عن أداة تصلح فلم أجد إلا القلمى .. فتحت فمها بكثير من الجهد ، وأولجت القلم حتى لامس اللهاة .. على حين رحت أكلمها كمن يكلم حصانًا جامحًا :

- « صبرًا .. هذه فتاة طيبة .. صبرًا .. »

الآن اتضح كل شيء .. إننا فى ورطة حقيقية ..

نهضت وخرجت إلى الرجال الواقفين ، وجلست على الرمال شاعرًا بالرجفة تزحف على عمودى الفقرى ..

- « ما رأيك يا سيدى ؟ »

نظرت له فى ضيق وقلت :

- « مثل رأيكم .. لو لم تكونوا قد تبينتم التشخيص الصحيح فأنتم حمقى .. »

* * *

11 ـ وداعًا توركانا ..

عزيزى علاء :

قال اليونانى وهو يمسح عرقه :

ـ « تيتانوس (كزاز) أصابها أثناء الولادة .. هذا واضح .. فقط أردت رأيك .. »

من علامات الكزاز الأولى والمهمة أن الفكين يتقلصان فلا تستطيع فتحهما .. لهذا السبب يهتم أهل القبيلة بتهشيم بعض أسنانهم على سبيل الاحتياط حتى لا يموتوا جوعًا لو أصيبوا بالكزاز .. طبعًا يكون الموت محتومًا لكن ليس بسبب الجوع على الأقل ..

حيث توجد جروح ملوثة خاصة بروث الماشية يصير الباب مفتوحًا للكزاز .. ومن الواضح أنها لم تتلق لقاحًا أثناء الحمل أو قبله .. البائسة أرادت أن تعيش حياة (التوركانا) وقد عاشتها حقًا .. عاشتها حرفيًا .. عاشتها بكل التفاصيل ..

قلت وأنا أمسح وجهى :

ـ « لا يوجد حل آخر .. لابد من نقلها إلى (سافارى) حالاً .. لا يمكن تقديم الحد الأدنى من العناية هنا .. »

وفى هذه اللحظة سمعناها تشهق .. وبدأت تشنجات الكزاز الشهيرة ..

صحت مناديًا (ميكوس) وأنا أهرع إلى الخيمة :

ـ « إلى ببعض (البنزوديازبين) .. هل لديكم بعض مضادات التشنج هنا ؟ »

وسادت فوضى عامة .. الكل يبحث عن عقار يصلح فى جعبته .. طبعًا الإمكانات وسط هذه الصحراء تعتبر نوعًا من الترف ، وقد قام (ميكوس) بتعبئة المحقن وأفرغه فى وريدها ، بينما التشنجات تأخذ طابعًا أعنف .. تلك الضحكة الصفراء على الثغر كاشفة عن أسنانها ، والتقلص العنيف فى الظهر الذى قد يصل أحيانًا إلى تحطيم فقراته .. تبًا ! إن الحالة عنيفة !

أخيرًا مرت النوبة على خير .. المشكلة فى مرض الكزاز أن المريض يظل واعيًا طيلة الوقت .. لا يفقد رشده أبدًا ..

قلت للشباب :

ـ « هلموا .. سنحملها إلى الطائرة .. »

هنا رأينا مجموعة من (التوركانا) يقتربون منا .. أحدهم كان الزعيم (كوباكو لاجا) ..

كان يتقدم فى تؤدة .. ضاغطًا بقدمه على الرمال مع كل خطوة كأنه يريد ترك أثرها للأبد ..

هتف (كولفارد) الذى وقف مع الرجال جوار الخيمة بشىء ما باللغة النيلية ، فرد عليه الزعيم بخطاب طويل ..

سألته وأنا أنهض من جوار المريضة :

- « ماذا يقول ؟ »

- « يقول إنها لن تذهب لأى مكان .. »

صحت فى عصبية وقد صعد الدم لرأسى :

- « جميل ! لكنه ترك زوجة أخرى تقيم فى وحدة (سافارى) ولم يسأل عنها إلى أن عادت سليمة .. »

- « هذا هو بيت القصيد .. إنه يعتقد أنكم لن تعيدوها له ثانية .. إن الرجل الأبيض يريد استرداد المرأة البيضاء .. »

نظرت إلى (كوبابكو لاجا) مغضبًا ، وقلت :

- « قل له إنها تموت .. وإن علاجها فى يدنا .. »

نقل له عباراتى ، فهز هذا الأخير رأسه .. إنه الرفض كما واضح ..

- « يقول إنها ستموت فى قريتها .. إن باقى الزوجات يعتنين بها .. »

كان الأمر معقدًا .. الرجل مصر ونحن برغم كل شىء نتحدث عن زوجته .. ثم إن التفاعل عن طريق مترجم أمر بالغ الصعوبة .. عدت أكرر عليه :

- « لابد من العناية بها .. »

فجاء الرد الثابت :

- « لن تذهب لأى مكان .. »

ثم - كأنهن فى موكب الموت - جاءت الزوجات .. لابد أن عددهن لايقل عن ست .. وأحطن بالخيمة وهن يظهرن العناية بالمريضة .. ولكن كيف تعنى بمريض كزاز من دون مستشفى ؟

قال لى (كورفالد) وهو يجفف عرقه :

- « لاجدوى يا بروفسور .. لن نستطيع أخذها من دون قتال .. »

- « ربما نلجأ إلى السلطات ؟ »

- « لن يساعدك أحد .. إن (توركاتا) لها عالمها الخاص وقوانينها الخاصة .. لنقل إنها قبيلة تحت القانون أو فوقه .. »

وجلسنا فوق الرمال عاجزين عن اتخاذ القرار الصحيح .. إن الوقت يمر .. لابد من عمل سريع ..

فجأة سمعنا صوت ضوضاء .. صوت غناء خشن موقع ، ثم ظهر لنا ذلك المخبول الآخر : (لوكيريو) .. كان يحمل قبة جمجمة فارغة يبدو أنها تخص بشريًا ، وفى يده الأخرى مدية ..

كان يتجه نحو الخيمة ...

أفسحت النساء له الطريق فركع على ركبتيه جوار المريضة .. ثم شهر المدية وراح ينشد .. إنه يبغى فصدها ! هذه هى الطامة الكبرى لأن مريض الكزاز لا يتحمل أى مؤثر .. ستبدأ التشنجات فورًا .. أضف لهذا أن له تاريخًا غير مشرف فى طعنها من قبل ..

صحت فيه فى هلع :

- « انتظر أيها المجنون ! إنك ... »

لكن كان هناك من يتحرك أسرع من صوتى ..

إنه ذلك الفتى (أوسكار سفيردراب) الذى عرفت من قبل أنه قصير الفتيل ساخن الرأس ..

قبل أن أفهم ما يحدث وثب فوق المخبول وانتزعه من قفاه كأنه دجاجة ، ثم ألقى به على بعد مترين فوق الرمال .. انتفض الساحر المجروح فى كرامته وراح يصوب إصبعين مفتوحين نحو صدر الفتى وهو يردد تعاويذ ما ..

لكن الفتى كان يملك تعاويذ أخرى .. تعاويذ نرويجية لا شك فى أنها تحمل أفظع السباب .. لقد انطلق كالسهم نحو الساحر الراقد على الأرض ووجه ركلة عنيفة إلى ذقنه ..

بعد هذا كانت معركة عنيفة ، لكنها من طرف واحد .. يذكرنى الأمر بألعاب الكمبيوتر التى تتم من طرف واحد .. الساحر رخو لا يستطيع الفكاك بينما الركلات واللكمات تنهمر فوقه ..

لم يحاول واحد منا أن يتدخل .. فى الواقع راق لنا الأمر إلى حد ما ..

والتفت (كولفارد) إلى رجاله وقال شيئًا ما فتوتروا ..

قال لى مفسرًا ما قال :

- « أمرتهم بأن ينقلوها إلى الطائرة .. سنأخذها قصرًا .. »

كان هذا ليكون أسهل لو لم تبدأ الزوجات فى الصراخ كالدجاجات المذعورة .. رحن يولولن ويلطمن الخدود .. يمكنك بسهولة أن تعرف ما يقلن : تعالوا لتنقذوا (لوكيريو) ! إن الكفرة البيض يريدون قتله !

للمرة الأولى أرى الوجه المتوحش من (توركانا) .. لم أسمع قط أنهم مقاتلون .. هم رعاة مسالمون متشككون .. لكن الوضع الآن اختلف ..

هناك عشرون من رجالهم يركضون فوق الرمال نحونـا ، وهم يلوحون بعصى غليظة .. الغضب على الوجوه .. ومـن الأفواه الخالية من الأسنان تخرج صرخات الموت ..

استعد (كولفارد) واتخذ وضعًا قتاليًا ممتازًا يصلح لمواجهة (بروس لى) شخصيًا ، فقط لترتطم عصا بصدغه فيهوى على الأرض والدم يسيل من جرحه ..

هوت عصا غليظة على الشاب (سفيردراب) فتكوم أرضًا ، لكنه استجمع قواه والتقط العصا ثم ضرب بها ساقى مهاجمـه .. والتحما على الأرض فى قتال عنيف ..

وأخيرًا برز الزعيم وهو يحمل أغلظ عصا فى المجموعـة .. اتجه نحوى فوقفت بـلامبـالاة أنتظره ، عالمًـا أنهـا النهايـة على الأرجح ..

لكنه نظر لى ثم واصل الركض بحثًا عن فريسة صالحـة .. إن الموقف يمكن تفسيره إلى حد ما .. أنا حموه .. ثمة رابطـة عائلية بيننا ..

لكن لا رابطة تصله بـ (كيسلن) ، لهذا هوى على كتفه بالعصا فسمعت صوت تهشم العظام ..

الآن بدا أننا فى أسوأ وضع ممكن ..

هنا سمعنا صوتًا واهنًا ينادى :

ـ « (ميكوووس) ! »

نظرنا للوراء فرأينا (مارجريت) تزحف خارج الخيمة ، وكانت خمولاً تمامًا بفعل العقار الذى حقنّاه لها .. لكنها تتحامل .. تجر نفسها كالسحلية فوق الرمال وهى تكرر لا انقطاع :

ـ « (ميكوسس) ! قف أمامهم .. ليكن جسدك حاجزًا ! »

ثم صاحت بالنيلية الواهنة قائلة شيئًا ما للرجال الغاضبين ..

ـ « (إيموسوكوت لوكينجارين) .. (إيموسوكوت لوكينجارين) !! »

هنا فقط وقف (ميكوس) بيننا ورجال (توركانا) .. كان يرتجف لكنه تماسك وفتح ذراعيه عن آخرهما : كأنما هو يطلب الاستشهاد فى إحدى صور الفن البيزنطى الأيقونى ..

هل هو السحر ؟ الرجال يتخلـون عن عصيهم .. يقفون صامتين .. ثم تنكس منهم الرءوس ..

زحف (كولفارد) إلى جوارى وهو يغطى الجرح النـازف فى صدغه بمنديله ، وقال وهو يلهث :

ـ « لقد ذكرتهم المرأة بأن (ميكوس) معنا .. و(ميكوس) هو روح الإسكندر الأكبر .. لا أحد يستطيع أن يؤنبه أو يؤذى رفاقه .. (إيموسوكوت لوكينجارين) .. »

مازال تفكيرها صافيًا ، وهذه هى مزية ومأساة مرض الكزاز ..

ساد صمت رهيب ..

هنا تجاسرت وركضت إلى حيث كانت المرأة تزحف على الرمال ..

حملتها بين ذراعى الواهنتين إلى الخيمة ، وهمست فى أذنها :

- « ما كان عليك أن تفعلى هذا أيتها المخبولة .. »

قال وهى تلهث ودون أن تفتح عينيها :

- « أنا سببت لكم الكثير من الأذى .. أنا آسفة .. »

- « هلا استعملت فصاحتك هذه لإقناعهم بأخذك إلى المستشفى ؟ »

استراحت فى مرقدها من جديد ، ومدت يدها إلى الكيس الذى كان تحت رأسها وقالت :

- « دعك من السخف .. أنت تعرف أنها النهاية .. فقط أطلب شيئين : أن تتأكد من أن طفلى سينشأ هنا .. سيكون من (التوركانا) بلا تدخل منكم .. »

ابتلعت تعليقاتى وقلت على مضض :

- « لك هذا .. »

- « المطلب الثانى هو أن تحافظ على هذه الأوراق العلمية .. إنها خلاصة ملاحظاتى .. أعطها لـ (ليكى) وهو سيعرف كيف ينشرها ويفيد منها .. »

ثم مدت يدها تمسح شيئًا على وجهى .. هذه دمعة .. متى نبتت هناك ؟ لم أشعر بها قط ..

قالت وهى تسعل :

- « تذكر أننى فعلت ما أردت وأننى سأموت راضية سعيدة .. »

وفجأة وقبل أن أرد أنا داهمتها نوبة تشنج عنيفة .. ارتسمت الضحكة (الساردونية) الصفراء على ثغرها وبدأت أطرافها تتشنج .. اللون الأزرق يغزو شفتيها ..

خرجت من الخيمة صارخًا :

- « إلى بالغوث ! نوبة أخرى ! »

فى هذه اللحظة أطلق رجال (توركانا) ونساؤها نوعًا من العويل الذى يحطم الأعصاب .. أنينًا طويلاً لا ينتهى من الشفاه كلها .. وكان أعلى الأصوات صوت الزعيم ..

- « اخرسوا يا حمقى .. أنا لا أسمع نفسى ! »

ورحنا نحاول فى بلاهة أن ننقذها .. لكن ما عجزنا نحن عن فهمه ، فهمه (التوركانا) بغريزتهم الصائبة .. لقد ماتت المرأة وما عدا هذا مجرد رتوش ..

رحنا نحاول .. حقنناها بكل شىء معنا .. الكثير من الهستيريا والصراخ .. ومن دون كلمة أخرى أخرج (كولفارد) كتابه المقدس الصغير من جيبه وركع جوار رأسها يتلو .. صحت فيه :

- « هل تعرف الطقوس ؟ ألن ترتكب أخطاء ؟ »

قال همسًا وهو لا يرفع وجهه عن الكتاب :

- « لا أعرف .. لكنى أحاول كما تحاولون أنتم .. »

فليرحمها الله .. إن حياتها مزيج غريب من الأخطاء الفادحة والشهامة والشجاعة والكذب والحمق .. لا أعرف ما يستطيع عقل بشرى أن يستخرجه من هذا المزيج العجيب ، فلنترك أمرها لقرار أحكم وقدرة أعلى ..

عويل الرجال والنساء يمتزج بصوت (كولفارد) الرخيم وهو يصلى .. يمتزج هذا كله بصوت أنفاسى وصوت سباب (سفيردراب) النرويجى ..

كنا نقف هناك منكسى الرءوس .. نرويجيون ورجال (سافارى) وبدائيون من (توركانا) .. كلنا نرمق الجثة التى كان لها دور مهم فى حياتنا جميعًا .. كلنا بشر نقف فى الصحراء .. كأنما الموت قد أذاب أية فوارق حضارية بيننا ..

الشمس تغرب .. صورنا تتحول إلى سلويت فوق خلفية زرقاء ..

والبرد بدأ يزحف ....

* * *

عزيزى علاء :

انتهت القصة ..

لا أعرف ما يمكن أن تستخلصه منها لكنى كرهت أن أعيشها من دون أن أقصها عليك ..

لقد تعلمت شيئين على الأقل : إن (توركانا) جميلة كما هى فلا يحاولن أحد إفسادها .. إنها جزء من الطبيعة ذاتها كتماسيح النهر والشلالات ومساقط المياه والفيضانات .. لا يمكن تغييرها .. من الخطر تغييرها ما لم تتغير هى من تلقاء ذاتها .. فقط علينا أن نكون قريبين نساعدهم متى أرادوا المساعدة .. لكن من دون خطط متعصبة مسبقة ..

الشيء الثانى هو أن (مارجريت) ماتت سعيدة .. لقد أرادت هذه الحياة واشتهت تلك الميتة .. فى الخلاء ترى السماء من فوقها وتشعر بالصحراء من تحتها .. ماتت كامرأة عادية من (توركانا) بعيدًا آلاف الأميال عن وطنها .. من الصعب أن نختار للآخرين ما يجب أن يحبوه ..

نحن مسئولون عن قراراتنا وعلينا أن نتحمل النتيجة .. كل الموجودين قالوا هذا ، لكن ما قرأته فى كتابات (سارتر Sartre) و(هدجر Hedger) لم يؤثر فىّ قط كما أثر فىّ هذا المشهد .. موتها بالكزاز فى تلك الخيمة فى صحراء شمال (كينيا) هو باختصار شديد نتيجة القرار الذى اتخذته .. وأشهد أنها تحملت تلك النتيجة بشجاعة ..

على الأقل سيعيش ابنها وسط (توركانا) .. سيعيش جزء من جيناتها هنا للأبد ...

لكننى لن أنسى بسهولة ..

سأظل أذكرها كلما رأيت حالة حويصلات مائية أو كزاز .. وكلما سمعت اسمى (النرويج) أو (توركانا) .. وكلما غربت الشمس .. بل كلما تنفست ..

لا أعرف ما سيكون فى حياتى غدًا ، لكن كان هذا هو الحب

الأخير - وربما الأول - ولا أنكر أن هذا الخليط من التناقضات الذى كان يعيش فيها قد استلب لبى كما لم يفعل شيء آخر فى العالم ..

أكتب هذه الرسالة وأعدك أننى لن أعود للكلام عن هذا الموضوع ، كما ستعدنى أنت بأنك ستنسى كل شيء عنه ولن تحكيه لمخلوق .. يجب أن يبدو مدير (سافارى) رمزًا للطب المتجرد البارد الخالى من المشاعر الشخصية ..

هذا هو ما يجب أن يكون .. وهذا هو ما سيصير إليه حالى ، بمجرد أن تأخذنى عجلة الأحداث الرهيبة والغريبة هنا فى (سافارى) ..

(شارل سينوريه)

بورو

تمت بحمد الله

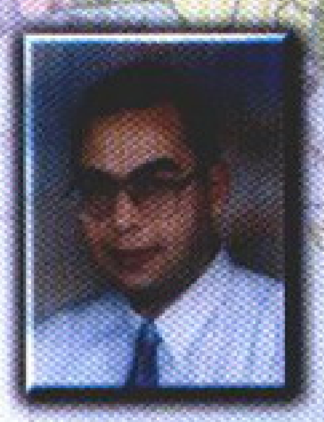


سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حياً ولكى يظل طبيباً

توركانا

هذه قصة من الطراز الذى تعرفونه جيداً .. علماء نرويجيون وجمجمة أثرية ومصانع أسماك ودودة قاتلة .. قصة عن قبيلة تدعى (توركانا) .. هى من أغرب القبائل على وجه الأرض وأقدمها وأكثرها فقراً .. قصة عن قبيلة تحاول الاحتفاظ بكينونتها فى عالم يتغير فى كل لحظة كالشلال .



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

حكاية ثقب

الثمن فى مصر ٢٥٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع


طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع